كليلة ودمنة

تأليف/ بيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمها إلى العربية

عبدالله بن المقفع

كليلـــة ودمنـــة

الكتاب والمؤلف

هذا كتاب غريب في بابه عجيب في عرضه إذ جاء محاوراته على ألسنة الحيوان لأسباب قد تكون سياسية.

لقد أجاد مؤلفه في اختيار موضوعاته ليستفيد منها الإنسان العادي تسلية والمثقف علما والفيلسوف فكرا.

ترجمه من اللغة الفارسية عبدالله ابن المقفع الفارسي الأصل المولود عام ١٠٧هـ المقتول بأمر الخليفة المنصور سنة ١٤٢.

هذا الأديب الفيلسوف له من التآليف غير هذا الكتاب:

كتاب الأدب الكبير - أيضاً كتاب الأدب الصغير.

قارؤنا الكريم

طالع هذا الكتاب تسلية إذا أردت، علما إذا رغبت، فلسفة وحكمة إذا أحببت، فلن تعدم فائدة واحدة وقد تحوز على الفوائد الثلاث.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الناشر

الباب الأول

مقدمة الكتاب

قدمها بهنود بن سحوان ويعرف بـ على بن الشاه الفارسي

باب مقدمة الكتاب
لعلي بن الشاه الفارسي
بهنود بن سحوان[١]

إن السبب الذى من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة[٢] لدبشليم ملك الهند كتابه الذى سماه كليلة ودمنة؛ وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام، وضنا بما ضمنه عن الطغام[٣]؛ وتنزيها[٤] للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها؛ إذ هى للفيلسوف مندوحة[٥]، ولخاطره مفتوحة؛ ولمحبيها تثقيف، ولطالبيها تشريف. ونذكر السبب الذى من أجله أنفذ كسرى أنوشروان[٦] ابن قباذ بن فيروز ملك الفرس: برزويه رأس الأطباء إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة؛ وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند؛ حتى حضر إليه الرجل الذى استنسخه له سرا من خزانة الملك ليلا، مع ما وجد من كتب علماء الهند، وقد ذكر الذى كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب؛ وذكر فيها ما

---

(١) ربما يكون ابن المقفع نفسه.

(٢) البراهمة: قوم لا يجوزون على الله بعثة الرسل.

(٣) الطَّغام: الأوغاد الأراذل.

(٤) النزاهة: البعد عن الشر.

(٥) مندوحة: سعة وفسحة.

(٦) كسرى أنوشروان: (٥٣١ - ٥٧٩م)، وأنوشروان لقبه، ومعناه: النَّفس الخالدة، كان ناصرًا للعلم والعلماء، وبأمر منه نقلت مؤلَّفات اليونان والسريان والهند إلي الفارسيَّة.

يلزم مطالعه من إتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر إلى باطن كلامه؛ وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه. وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرا، وقد ذكر السبب الذى من أجله وضع بزرجمهر بابا مفردا يسمى باب برزويه المتطبب، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وأوان مولده إلى أن بلغ التأديب، وأحب الحكمة واعتبر فى أقسامها. وجعله قبل باب الأسد والثور الذى هو أول الكتاب.

قال على بن الشاه الفارسى:

كان السبب الذى من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة، أن الإسكندر ذا القرنين الرومى[١] لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم؛ فلم يزل يحارب من نازعه[٢] ويواقع[٣] من واقعه، ويسالم من وادعه[٤] من ملوك الفرس، وهم الطبقة الأولى، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه[٥] وتغلب على من حاربه؛ فتفرقوا طرائق[٦] وتمزقوا حزائق[٧]. فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين؛ فبدأ فى طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول فى ملته وولايته.

وكان على الهند فى ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس، يقال له فور. فلما بلغه إقبال ذى القرنين نحوه تأهب لمحاربته، واستعد لمجاذبته؛ وضم

---

(١) الإسكندر ذو القرنين المقدونِّي (٣٥٦ - ٣٢٤هـ ق.م) فتح بلاد فارس بعد أن انتصر عليهم فى معركة إيسوس، وفتح العراق وسوريا ووصل سواحل مصر وبني مدينة الإسكندرية، ثم تابع زحفه إلي بلاد الهند والصين. وهو غير ذي القرنين الذي ذُكِرَ في القرآن الكريم.

(٢) نازعه: جاذبه في خصومة.

(٣) يواقع: يقاتل.

(٤) وادعه: صالحه.

(٥) ناوأه: عاداه.

(٦) طرائق: أى فرقا مختلفة.

(٧) حزائق: أى قطعا.

إليه أطرافه، وجد فى التألب[١] عليه؛ وجمع له العدة فى أسرع مدة من الفيلة المعدة للحروب، والسباع المضراة[٢] بالوثوب[٣]؛ مع الخيول المسرجة[٤] والسيوف القواطع، والحراب[٥] اللوامع. فلما قرب ذو القرنين من فور الهندى وبلغه ما قد أعد له من الخيل التى كأنها قطع الليل مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا فى الأقاليم، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلا ذا حيل ومكايد، مع حسن تدبير وتجربة، فرأى إعمال الحيلة والتمهل، واحتفر خندقا على عسكره؛ وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره؛ وكيف ينبغى له أن يقدم على الإيقاع به. فاستدعى بالمنجمين[٦]، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنُّصرة عليه. فاشتغلوا بذلك. وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف.

فأنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه فى أن يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة، عليها تماثيل من الرجال، على بكَر تجرى، إذا دفعت مرت سراعا. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت؛ وتلبس وتقدم أمام الصف فى القلب[٧]. ووقت ما يلتقى الجمعان تضرم فيها النيران[٨]. فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهى حامية، ولت هاربة. وأوعز إلى الصناع

(١) التألب: التجمع.
(٢) السِّباع المضرَّاة: المعوَّدة والمدرَّبة.
(٣) المضراة بالوثوب: المتعصبة للوثوب المعتادة للهجوم.
(٤) الخيول المسرجة: أي الخيول المزودة بالرحل فالسَّرْجُ: هو رحل الدابة.
(٥) جمع: حربة سلاح من أسلحة الحرب قديما.
(٦) المنجمون: الذين يدعون معرفة الأشياء بمطالع النجوم.
(٧) القلب أي: في وسط المعركة.
(٨) تضرم فيها النيران: توقد فيها النيران.

بالتشمير والانكماش[١] والفراغ منها. فجدوا فى ذلك وعجلوا. وقرب أيضا وقت اختيار المنجمين. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بما يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب مِصُرٍّ على مخالفته، مقيم على محاربته، فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته؛ وقدم فور الفيلة أمامه، ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان؛ فأقبلت الفيلة نحوها، ولفت خراطيمها عليها. فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها، وداستهم تحت أرجلها، ومضت مهزومة هاربة، لا تلوى[٢] على شىء ولا تمر بأحد إلا وطئته، وتقطع[٣] فور وجمعه؛ وتبعهم أصحاب الإسكندر؛ وأثخنوا[٤] فيهم الجراح[٥]. وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز[٦] إلينا، وأبق على عدتك وعيالك، ولا تحملهم على الفناء. فإنه ليس من المروءة أن يرمى الملك بعدته فى المهالك المتلِفة والمواضع المجحفة[٧]، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فابرز إلى ودع الجند، فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد.

فلما سمع فور من ذى القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعا فيه؛ وظن ذلك فرصة. فبرز إليه الإسكندر فتجاولا[٨] على ظهرىْ فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة، ولم يزالا يتعاركان. فلما أعيا[٩] الإسكندر أمره ولم يجد له فرصة ولا حيلة أوقع ذو القرنين فى عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض

(١) التشمير والانكماش: الجد في العمل مع الانتهاء منه بسرعة.
(٢) لا تلوى: لا تقف ولا تنتظر.
(٣) تقطع: تفرَّق.
(٤) أثخنوا: أكثروا.
(٥) أي: أكثروا فيهم الجراحة حتى أوهنوهم.
(٦) ابرز: أي واجهنى.
(٧) المجحفة: المهلكة.
(٨) تجاولا: دار أحدهما حول الآخر.
(٩) أعيا: أعجز.

والعساكر؛ فالتفت فور عندما سمع الزعقة، وظنها مكيدة فى عسكره؛ فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه، وتبعه بأخرى؛ فوقع على الأرض. فلما رأت الهند ما نزل بهم، وما صار إليه ملكهم؛ حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالا أحبوا معه الموت. فوعدهم من نفسه الإحسان، ومنحه الله أكتافهم[١]؛ فاستولى على بلادهم، وملك عليهم رجلا من ثقاته. وأقام بالهند حتى استوثق[٢] مما أراد من أمرهم واتفاق كلمتهم؛ ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم. ومضى متوجها نحو ما قصد له.

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذى خلفه عليهم؛ وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة والعامة أن يملِّكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه لايزال يستذلهم ويستقلهم[٣]. واجتمعوا يملكوا عليهم رجلا من أولاد ملوكهم؛ فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم؛ وخلعوا[٤] الرجل الذى كان خلفه عليهم الإسكندر. فلما استوثق[٥] له الأمر، واستقر له الملك، طغى وبغى وتجبر وتكبر؛ وجعل يغزو من حوله من الملوك. وكان مع ذلك مؤيدا مظفرا منصورا. فهابته الرعية[٦]. فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم. وكان لا ترتقى حاله إلا ازداد عتوا. فمكث على ذلك برهة من دهره. وكان فى زمانه رجل فيلسوف من البراهمة، فاضل حكيم، يعرف بفضله، ويرجع فى الأمور إلى قوله، يقال له بيدبا. فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكر فى وجه الحيلة فى صرفه

(١) منحه الله أكتافهم: مكَّنه منهم فهزمهم.
(٢) استوثق هنا: أخذ الثقة ممن أراد
(٣) يستقلُّهم: يحتقرهم ويستصغرهم.
(٤) خلعوا: أي جردوه من منصبه.
(٥) استوثق: تأكد.
(٦) هابته الرعية: أي خافته الرعية.

عما هو عليه، ورده إلى العدل والإنصاف؛ فجمع لذلك تلاميذه، وقال: أتعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه؟ اعلموا أنى أطلت الفكرة فى دبشليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية، ونحن ما نروض[١] أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، إلا لنردَّهم إلى فعل الخير ولزوم العدل. ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا، وبلوغ المحذورات[٢] إلينا؛ إذْ كنا فى أنفس الجهال أجهل منهم؛ وفى العيون عندهم أقل منهم. وليس الرأى عندى الجلاء عن الوطن. ولا يسعنا فى حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة. ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا. ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته. وإن أحس منا بمحالفته وإنكارنا سوءَ سيرته كان فى ذلك بوارنا[٣].

وقد تعلمون أن مجاورة السبع والكلب والحية والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنفس. وإن الفيلسوف لحقيق[٤] أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور؛ ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب، ولقد كنت أسمع أن فيلسوفا كتب لتلميذه يقول: إن مجاور رجال السوء ومصاحبهم كراكب البحر: إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف. فإذا هو أورد نفسه موارد الهلكات ومصادر المخوفات، عُد أشرَّ من الحمير التى لا نفس لها. لأن الحيوان البهيمية قد خصت فى طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقى المكروه: وذلك أننا لم نرها تورد أنفسها موردا فيه هلكتها. وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها، مالت بطبائعها التى ركبت فيها – شحا[٥] بأنفسها وصيانة لها– إلى النفور والتباعد

(١) نروض: نعوّد.
(٢) المحذور: ما يتقى ويحترز منه ويخشى عاقبته.
(٣) البوار: الفساد والهلاك.
(٤) حقيق: أهل وجدير.
(٥) الشُّحُّ: البخل.

عنه. وقد جمعتكم لهذا الأمر: لأنكم أسرتى ومكان سرى وموضع معرفتى؛ وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد. فإن الوحيد فى نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له. على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود. والمثل فى ذلك أن قنبرة[١] اتخذت أدحية[٢] وباضت فيها على طريق الفيل، وكان للفيل مشرب يتردد إليه. فمر ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطئ عش القنبرة؛ وهشم[٣] بيضها وقتل فراخها. فلما نظرت ما ساءها، علمت أن الذى نالها من الفيل لا من غيره. فطارت فوقعت على رأسه باكية؛ ثم قالت:

أيها الملك لِمَ هشمت بيضى وقتلت فراخى، وأنا فى جوارك؟ أفعلت هذا استصغارا منك لأمرى واحتقارا لشأنى؟

قال: هو الذى حملنى على ذلك.

فتركته وانصرفت إلى جماعة الطير؛ فشكت إليها ما نالها من الفيل.

فقلن لها وما عسى أن نبلغ منه ونحن طيور؟

فقالت للعقاعق[٤] والغربان: أحب منكن أن تصرن معى إليه فتفقأن عينيه؛ فإنى أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى. فأجَبنها إلى ذلك، وذهبن إلى الفيل، ولم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما. وبقى لا يهتدى إلى طريق مطعمه ومشربه إلا ما يقمهُّ[٥] من موضعه. فلما علمت ذلك منه، جاءت إلى غدير[٦] فيه ضفادع كثيرة، فشكت إليها ما نالها من الفيل.

قالت الضفادع: ما حيلتنا نحن فى عظم الفيل؟ وأين نبلغ منه؟

---

(١) الأفصح فيها قبرة وهى طائر مثل العصفور.

(٢) محلا تبيض فيه القبرة.

(٣) هشَّم: كسر.

(٤) جمع عقعق وهو طير أبلق مختلط السواد بالبياض.

(٥) يقمُّه: ما يأكله عن وجه الأرض.

(٦) الغدير: القطعة من الماء، وعند الجغرافيين: النهر الصغير.

قالت: أحب منكن أن تصرن معى إلى وهدة[١] قريبة منه، فتنقق[٢] فيها، وتضججن. فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك فى الماء فيهوى فيها.

فأجبنها إلى ذلك؛ واجتمعن فى الهاوية، فسمع الفيل نقيق الضفادع، وقد أجهده العطش، فأقبل حتى وقع فى الوهدة، فارتطم[٣] فيها. وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه؛ وقالت:

أيها الطاغى المغتر بقوته المحتقر لأمرى، كيف رأيت عظم حيلتى مع صغر جثتى عند عظم جثتك وصغر همتك؟

فليشر كل واحد منكم بما يسنح[٤] له من الرأى.

قالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل، والحكيم العادل، أنت المقدم فينا، والفاضل علينا، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك، وفهمنا عند فهمك؟ غير أننا نعلم أن السباحة فى الماء مع التمساح تغرير[٥]؛ والذنب فيه لمن دخل عليه فى موضعه. والذى يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجربه جانٍ على نفسه؛ فليس الذنب للحية. ومن دخل على الأسد فى غابته، لم يأمن من وثبته. وهذا الملك لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب. ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته وإنا نخاف عليك من سَوْرته[٦] ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب. فقال الحكيم بيدبا:

لعمرى[٧] لقد قلتم فأحسنتم، لكن ذا الرأى الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه

---

(١) وهدة: الأرض المنخفضة.

(٢) النقيق: صوت الضفادع.

(٣) وقع ولم يمكنه الخروج.

(٤) سنح سنوحًا: أي عرض، يقال: سنح لي رأيٌ في كذا.

(٥) تغرير: أي وقوع في الخطر والهلكة.

(٦) شدته واعتدائه.

(٧) لعمري: أقسم بحياته.

أو فوقه فى المنزلة. والرأى الفرد لا يكتفى به فى الخاصة ولا ينتفع به فى العامة.

وقد صحَّت عزيمتى على لقاء دبشليم. وقد سمعت مقالتكم؛ وتبين لى نصيحتكم والإشفاق على وعليكم. غير أنى قد رأيت رأيا وعزمت عزما؛ وستعرفون حديثى عند الملك ومجاوبتى إياه فإذا اتصل بكم خروجى من عنده فاجتمعوا إلى. وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة.

ثم إن بيدبا اختار يوما للدخول على الملك؛ حتى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مسوحه[١] وهى لباس البراهمة؛ وقصد باب الملك، وسأل عن صاحب إذنه وأُرشد إليه وسلم عليه؛ وأعلمه وقال له: إنى رجل قصدت الملك فى نصيحة. فدخل الآذن[٢] على الملك فى وقته، وقال: بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا؛ ذكر أن معه للملك نصيحة. فأذن له؛ فدخل ووقف بين يديه وكفر[٣] وسجد له واستوى[٤] قائما وسكت.

وفكر دبشليم فى سكوته، وقال:

إن هذا لم يقصدنا إلا لأمرين: إما لالتماس شىء منا يصلح به حاله، وإما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة. ثم قال: إن كان للملوك فضل فى مملكتها فإن للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال. وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان: متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر؛ كالمتصافيين[٥] إن عدم منهما أحد لم يطب صاحبه نفسا بالبقاء بعده تأسفا عليه. ومن لم يستحِ من الحكماء ويكرمهم، ويعرف فضلهم على غيرهم،

---

(١) جمع مسح وهو الكساء من الشعر لباس كان يلبسه الرهبان المتقشفون.

(٢) الآذن: صاحب الإذن، والحاجب..

(٣) كفَّر: خضع وانحنى

(٤) استوى: نهض.

(٥) المتصافيان: المتوادَّان والمتحابَّان.

ويصنهم عن المواقف الواهنة[١]، وينزههم عن المواطن الرذلة[٢] كان ممن حُرم عقله، وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعد من الجهال.

ثم رفع رأسه إلى بيدبا؛ وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكنا لا تعرض حاجتك، ولا تذكر بغيتك[٣]، فقلت: إن الذى أسكته هيبة ساورته[٤] أو حيرة أدركته؛ وتأملت عند ذلك من طول وقوفك، وقلت: لم يكن لبيدبا أن يطرقنا[٥] على غير عادة إلا لأمر حركه لذلك؛ فإنه من أفضل أهل زمانه. فهلا نسأله عن سبب دخوله؛ فإن يكن من ضيم[٦] ناله، كنت أولى من أخذ بيده وسارع فى تشريفه، وتقدم فى البلوغ إلى مراده وإعزازه؛ وإن كانت بغيته غرضا من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحب؛ وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغى للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت فى قدر[٧] عقوبته؛ على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه فى باب مسألة الملوك؛ وإن كان شيئا من أمور الرعية يقصد فيه أنى أصرف عنايتى إليهم، نظرت ما هو؛ فإن الحكماء لا يشيرون إلا بالخير، والجهال يشيرون بضده. وأنا قد فسحت لك فى الكلام.

فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه[٨]؛ وسرى عنه[٩] ما كان وقع فى نفسه من خوفه وكفر له وسجد، ثم قام بين يديه وقال: أول ما أقول أسأل الله تعالى بقاء الملك

---

(١) الواهنة: الضعيفة.
(٢) الرذلة: الدنية الخسيسة.
(٣) البغية: المراد والطَّلب.
(٤) هيبة ساورته: هيبة وخشية صارعته.
(٥) يطرق: يأتى.
(٦) ضيم: الظلم أو الإذلال، ونحوهما.
(٧) قدر: في بعض النسخ (أمر).
(٨) أى ذهب فزعه وخوفه.
(٩) زال عنه الخوف.

على الأبد، ودوام ملكه على الأمد[١]، لأن الملك قد منحنى فى مقامى هذا محلا جعله شرفا لى على جميع من بعدى من العلماء؛ وذكرا باقيا على الدهر عند الحكماء. ثم أقبل على الملك بوجهه، مستبشرا به فرحا بما بدا له منه، وقال: قد عطف الملك علىَّ بكرمه وإحسانه. والأمر الذى دعانى إلى الدخول على الملك، وحملنى على المخاطرة لكلامه، والإقدام عليه، نصيحة اختصصته بها دون غيره. وسيعلم من يتصل به ذلك أنى لم أقصر عن غاية فيما يجب للمولى على الحكماء. فإن فسح فى كلامى ووعاه عنى[٢]، فهو حقيق بذلك وما يراه، وإن هو ألقاه، فقد بلغت ما يلزمنى وخرجت من لوم يلحقنى.

قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت: فإننى مصغ إليك[٣]، ومقبل عليك، وسامع منك، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله. قال بيدبا: إنى وجدت الأمور التى اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهى جُمَّاعُ ما فى العالم[٤]، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل.

فالعلم والأدب والروية[٥] داخلة فى باب الحكمة. والحلم والصبر والوقار داخلة فى باب العقل. والحياء والكرم والصيانة والأنفة[٦] داخلة فى باب العفة. والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة فى باب العدل. وهذه هى المحاسن، وأضدادها هى المساوئ. فمتى كملت هذه فى واحد لم تخرجه الزيادة فى نعمة إلى سوء الحظ من دنياه ولا إلى نقص فى عقباه[٧]، ولم يتأسف على ما لم يعن التوفيق ببقائه،

---

(١) الأمد: النهاية.

(٢) وعاه: حفظه.

(٣) مصغ إليك: محسن الاستماع إليك.

(٤) جُمَّاع: جميع.

(٥) الروية: النظر والتفكير في الأمر.

(٦) الأنفة: العزة والحمية.

(٧) عقباه: آخرته.

ولم يحزنه ما تجرى به المقادير فى ملكه، ولم يدهش عند مكروه. فالحكمة لا تفنى على إنفاق، وذخيرة لا يضرب لها بالإملاق[١]، وحلة لا تخلق جدتها[٢]، ولذة لا تصرم مدتها[٣]. ولئن كنت عند مقامى بين يَدَيِ الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام، إن ذلك لم يكن منى إلا لهيبته والإجلال له.

ولعمرى إن الملوك لأهل أن يهابوا؛ لاسيما من هو فى المنزلة التى جل فيها الملك عن منازل الملوك قبله. وقد قالت العلماء: الزم السكوت؛ فإن فيه سلامة؛ وتجنب الكلام الفارغ؛ فإن عاقبته الندامة. وحكى أن أربعة من العلماء ضمهم مجلس ملك، فقال لهم: ليتكلم كل بكلام يكون أصلا للأدب.

فقال أحدهم: أفضل خلة[٤] العلم السكوت. وقال الثانى: إن من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله. وقال الثالث: أنفع الأشياء للإنسان ألا يتكلم بما لا يعنيه. وقال الرابع: الأمور على التسليم للمقادير. واجتمع فى بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم؛ وقالوا ينبغى أن يتكلم كل واحد منا بكلمة وتدون عنه على غابر الدهر[٥]. فقال ملك الصين: أنا على ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته[٦]. وقال ملك فارس: أنا إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى، وإذا لم أتكلم بها ملكتها، وقال ملك الروم: ما ندمت على ما لم أتكلم به قط، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيرا. والسكوت عند الملوك أحسن

---

(١) لعل الصواب «لا يضر بها الإملاق».

(٢) لا يبلى جديدها

(٣) أى لا تقطع.

(٤) الخلة: الخصلة.

(٥) غابر الدهر: سالف الزَّمن والماضي منه.

(٦) أهلكته بشدة

من الهذر[١] الذى لا يرجع منه إلى نفع، وأفضل ما استضل[٢] به الإنسان لسانه. غير أن الملك، أطال الله مدته، لما فسح لى فى الكلام وأوسع لى فيه؛ كان أولى ما أبدأ به من الأمور التى هى غرضى أن يكون ثمرة ذلك له دونى، وأن أختصه بالفائدة قبلى. على أن العقبى[٣] هى ما أقصد فى كلامى له؛ وإنما نفعه وشرفه راجع إليه؛ وأكون أنا قد قضيت فرضا وجب على فأقول: أيها الملك إنك فى منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك، وشيدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش؛ واستجاشوا العدة[٤]، وطالت لهم المدة؛ واستكثروا من السلاح والكراع[٥]؛ وعاشوا الدهور، فى الغبطة والسرور؛ فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر؛ ولا استعمال الإحسان إلى من خولوه[٦]، والإرفاق بمن ولوه[٧]، وحسن السيرة فيما تقلدوه؛ مع عظم ما كانوا فيه من غرة[٨] الملك، وسكرة الاقتدار[٩]. وإنك أيها الملك السعيد جده، الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التى كانت علتهم، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود؛ فلم تقم فى ذلك بحق ما يجب عليك؛ بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت

---

(١) الهذر: الكلام الذي لا ينبغي، ويكثر فيه الخطأ أو الباطل.
(٢) استُضلَّ: حُمل علي الضَّلال.
(٣) العقبى: العاقبة جزاء الأمر.
(٤) استجاش الجيش: جمعه.
(٥) الكراع: اسم لجمع الخيل والسلاح.
(٦) خُولوه: مُلِّكوه.
(٧) ولوه: تولُّوا عليه.
(٨) غروره.
(٩) سكرة الاقتدار: شدة الاقتدار.

منك البلية[١]. وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك[٢]، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو[٣] محاسن ما أبقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك ، وشينه[٤] واقع بك؛ وتحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره، ويعقبك[٥] الجميل فخره؛ ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة. فإن الجاهل المغتر من استعمل فى أموره البطر والْأُمنية[٦]، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق؛ فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك، ولا يثقلن ذلك عليك: فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به، ولا التماس معروف تكافئنى فيه؛ ولكنى أتيتك ناصحا مشفقا عليك.

فلما فرغ بيدبا من مقالته، وقضى مناصحته، أوغر صدر[٧] الملك فأغلظ له فى الجواب استصغارا لأمره؛ وقال: لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحدا من أهل مملكتى يستقبلنى بمثله، ولا يقدم على ما أقدمتَ عليه، فكيف أنت مع صغر شأنك، وضعف منتك[٨] وعجز قوتك؟ ولقد أكثرت إعجابى من إقدامك على، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك، وما أجد شيئا فى تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك[٩]. فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت[١٠] أنت من الملوك إذا

---

(١) البلية: المحنة.

(٢) أسلافك: أجدادك من الملوك.

(٣) تقفو: تتبع.

(٤) شينه: قبحه.

(٥) يُعقبك: يورثك.

(٦) البطر: الاستخفاف والتَّعالى. والْأُمنيَّة: التعَلُّل بالآمال.

(٧) أوغر صدر الملك: أحماه من الغيظ.

(٨) منتك: قوتك

(٩) التنكيل: المعاقبة حتى يعتبر الآخرين.

(١٠) يروم ما رمت: يطلب ما طلبت.

أوسعوا لهم فى مجالسهم. ثم أمر به أن يقتل ويصلب.

فلما مضوا به فيما أمر، فكر فيما أمر به فأحجم عنه[١]، ثم أمر بحبسه وتقييده. فلما حبس أنفذ فى طلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه فهربوا فى البلاد واعتصموا بجزائر البحار. فمكث بيدبا فى محبسه أياما لا يسأل الملك عنه، ولا يلتفت إليه؛ ولا يجسر[٢] أحد أن يذكره عنده؛ حتى إذا كان ليلة من الليالى سهد الملك سهدا شديدا[٣]؛ فطال سهده، ومد إلى الفلك بصره؛ وتفكر فى تفلك[٤] الفلك وحركات الكواكب، فأغرق الفكر فيه، فسلك به إلى استنباط شىء عرض له من أمور الفلك، والمسألة عنه، فذكر عند ذلك بيدبا، وتفكر فيما كلمه به؛ فارعوى[٥] لذلك. وقال فى نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيعت واجب حقه، وحملنى على ذلك سرعة الغضب. وقد قالت العلماء: أربعة لا ينبغى أن تكون فى الملوك: الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتا[٦]؛ والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده؛ والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره؛ والعنف فى المحاورة فإن السفه[٧] ليس من شأنها وإنى أتى إلىَّ رجل نصح لى، ولم يكن مبلغا؛ فعاملته بضد ما يستحق، وكافأته بخلاف ما يستوجب. وما كان هذا جزاءه منى؛ بل كان الواجب أن أسمع كلامه، وأنقاد لما يشير به، ثم أنفذ فى ساعته من يأتيه به.

فلما مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألست الذى قصدت إلى تقصير همتى، وعجزت رأيى فى سيرتى بما تكلمت به آنفا[٨]؟

---

(١) أحجم عنه: تأخر عنه.

(٢) يجسر: يجرؤ.

(٣) أرق أرقا شديدا

(٤) استدارة مدار النجوم

(٥) ارعوى: رجع عن جهله.

(٦) مقتًا: قبحًا.

(٧) السفه: الخفة والطيش.

(٨) آنفًا: سابقًا.

قال له بيدبا: أيها الملك الناصح الشفيق، والصادق الرفيق، إنما نبأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك، ودوام ملكك لك، قال له الملك: يا بيدبا أعد على كلامك كله، ولا تدع منه حرفا إلا جئت به. فجعل بيدبا ينثر كلامه[1]، والملك مصغ إليه. وجعل دبشليم كلما سمع منه شيئا ينكت الأرض بشيء كان فى يده. ثم رفع طرفه إلى بيدبا، وأمره بالجلوس.

وقال له: يا بيدبا، إنى قد استعذبت كلامك وحسن موقعه من قلبى. وأنا ناظر فى الذى أشرت به، وعامل بما أمرت.

ثم أمر بقيوده فحُلت. وألقى عليه من لباسه، وتلقاه بالقبول.

فقال بيدبا: يأيها الملك، إن فى دون ما كلمتك به نهية لمثلك.

قال: صدقت أيها الحكيم الفاضل. وقد وليتك من مجلسى هذا إلى جميع أقاصى مملكتى.

فقال له: أيها الملك أعفنى من هذا الأمر: فإنى غير مضطلع بتقويمه إلا بك. فأعفاه من ذلك.

فلما انصرف، علم أن الذى فعله ليس برأى، فبعث فرده. وقال:

إنى فكرت فى إعفائك مما عرضته عليك فوجدته لا يقوم إلا بك، ولا ينهض به غيرك، ولا يضطلع به سواك. فلا تخالفنى فيه. فأجابه بيدبا إلى ذلك.

وكان عادة ملوك ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرا[2] أن يعقدوا على رأسه تاجا، ويركب فى أهل المملكة، ويطاف به فى المدينة. فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك. فوضع التاج على رأسه، وركب فى المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف: يأخذ للدنى من الشريف، ويساوى بين القوى والضعيف؛ ورد المظالم، ووضع سنن العدل،

(١) ينثر كلامه: يسترسل في الكلام.

(٢) استوزروا وزيرًا: أي نصَّبوه وزيرًا.

وأكثر من العطاء والبذل. واتصل الخبر بتلاميذه فجاءوه من كل مكان، فرحين بما جدد الله له من جديد رأى الملك فى بيدبا؛ وشكروا[1] الله تعالى على توفيق بيدبا فى إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيدا يعيدون فيه فهو إلى اليوم عيد عندهم فى بلاد الهند.

ثم إن بيدبا لما أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم، تفرغ لوضع كتب السياسة ونشط لها، فعمل كتبا كثيرة، فيها دقائق الحيل. ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل فى الرعية. فرغبت إليه الملوك الذين كانوا فى نواحيه، وانقادت له الأمور على استوائها. وفرحت به رعيته وأهل مملكته، ثم إن بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم، ووعدهم وعدا جميلا. وقال لهم: لست أشك أنه وقع فى نفوسكم وقت دخولى على الملك أن قلتم: إن بيدبا قد ضاعت حكمته، وبطلت فكرته: إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغى. فقد علمتم نتيجة رأيى وصحة فكرى. وإنى لم آته جهلا به: لأنى كنت أسمع من الحكماء قبلى تقول: إن الملوك لها سَوْرة[2] كسورة الشراب: فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء. والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء. والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم: ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من رقدتهم؛ كالطبيب الذى يجب عليه فى صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردها إلى الصحة. فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف فى زمان دبشليم الطاغى فلم يرده عما كان عليه.فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفا على نفسه، قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به؛ والانزعاج عن الوطن[3] شديد؛ فرأيت أن أجود بحياتى؛ فأكون قد

(١) التعدية باللام أفصح أى يقول شكروا لله تعالى كما قال القرآن الكريم ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.
(٢) حدة وشدة
(٣) الانزعاج عن الوطن: الانقطاع عنه وهجرانه.

أتيت فيما بينى وبين الحكماء بعدى عذرا؛ فحملتها على التغرير[1] أو الظفر بما أريده. وكان من ذلك ما أنتم معاينوه: فإنه يقال فى بعض الأمثال: إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله فى نفسه، وإما بوضيعة فى ماله أو وكس فى دينه[2]. ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب. وإن الملك دبشليم قد بسط لسانى فى أن أضع كتابا فيه ضروب الحكمة. فليضع كل واحد منكم شيئا فى أى فن شاء؛ وليعرضه علىَّ لأنظر مقدار عقله، وأين بلغ من الحكمة فهمه.

قالوا: أيها الحكيم الفاضل، واللبيب العاقل، والذى وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل والأدب والفضيلة، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط. وأنت رئيسنا وفاضلنا، وبك شرفنا، وعلى يدك انتعاشنا. ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت. ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانا يتولى ذلك له بيدبا ويقوم به.

ثم إن الملك دبشليم لما استقر له الملك، وسقط عنه النظر فى أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا، صرف همته إلى النظر فى الكتب التى وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده؛ فوقع فى نفسه أن يكون له أيضا كتاب مشروح ينسب إليه وتذكر فيه أيامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله. فلما عزم على ذلك، علم أنه لا يقوم ذلك إلا ببيدبا: فدعاه وخلا به؛ وقال له:

يا بيدبا، إنك حكيم الهند وفيلسوفها. وإنى فكرت ونظرت فى خزائن الحكمة التى كانت للملوك قبلى؛ فلم أر فيهم أحدا إلا وقد وضع كتابا يذكر فيه أيامه وسيرته، وينبئ عن أدبه وأهل مملكته؛ فمنه ما وضعته الملوك لأنفسها، وذلك لفضل حكمة فيها؛ ومنه ما وضعته حكماؤها. وأخاف أن يلحقنى ما لحق أولئك مما لا حيلة لى فيه،

(١) التعريض للهلاك.

(٢) أى أن يكون صاحب عقيدة صحيحة يتمسك بها مع أنه يؤذَى وينتقص فى سبيلها، فإذا ناله وكس بسبب ذلك فإنه لابد أن يعرف الناس قدره بعد حين ــ عن طبعة الأميرية.

ولا يوجد فى خزائنى كتاب أُذكر به بعدى، وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلى بكتبهم. وقد أحببت أن تضع لى كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته؛ فيسقط بذلك عنى وعنهم كثير مما نحتاج إليه فى معاناة الملك. وأريد أن يبقى لى هذا الكتاب بعدى ذكرا على غابر الدهور. فلما سمع بيدبا كلامه خر له ساجدا، ورفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جده، علا نجمك، وغاب نحسك، ودامت أيامك؛ إن الذى قد طبع عليه الملك من جودة القريحة[١] ووفور العقل[٢] حرَّكه لمعالي الأمور؛ وسمت به نفسه وهمته إلى أشرف المراتب منزلة، وأبعدها غاية، وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك، وأعاننى على بلوغ مراده. فليأمر الملك بما شاء من ذلك: فإنى صائر إلى غرضه، مجتهد فيه برأيى.

قال له الملك: يا بيدبا لم تزل موصوفا بحسن الرأى وطاعة الملوك فى أمورهم. وقد اختبرت منك ذلك، واخترت أن تضع هذا الكتاب، وتعمل فيه فكرك، وتجهد فيه نفسك، بغاية ما تجد إليه السبيل. وليكن مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة. فكفر له بيدبا وسجد، وقال:

قد أجبت الملك أدام الله أيامه إلى ما أمرنى به، وجعلت بينى وبينه أجلا.

قال: وكم هو الأجل؟ قال: سنة.

قال: قد أجلتك؛ وأمر له بجائزة سنية[٣] تعينه على عمل الكتاب فبقى بيدبا مفكرا فى الأخذ فيه، وفى أى صورة يبتدئ بها فيه وفى وضعه.

ثم إن بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم:

---

(١) القريحة: ملكة يستطيع بها صاحبها ابتداع الكلام وإبداء الرأي.

(٢) وفور العقل: كثرة ووفرة رجحان العقل.

(٣) سنية: ثمينة ونفيسة.

إن الملك قد ندبنى لأمر فيه فخرى وفخركم وفخر بلادكم، وقد جمعتكم لهذا الأمر. ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب، والغرض الذى قصد فيه، فلم يقع لهم الفكر فيه. فلما لم يجد عندهم ما يريده فكر بفضل حكمته، وعلم أن ذلك أمر إنما يتم باستفراغ العقل وإعمال الفكر؛ وقال:

أرى السفينة لا تجرى فى البحر إلا بالملاحين: لأنهم يعدلونها؛ وإنما تسلك اللجة[١] بمدبرها الذى تفرَّد بإمرتها؛ ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق. ولم يزل يفكر فيما يعمله فى باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه، مع رجل من تلاميذه كان يثق به؛ فخلا به منفردا معه، بعد أن أعد من الورق الذى كانت تكتب فيه الهند شيئا، ومن القوت[٢] ما يقوم به وبتلميذه تلك المدة. وجلسا فى مقصورة، وردا عليهما الباب ثم بدءا فى نظم الكتاب وتصنيفه، ولم يزل هو يملى وتلميذه يكتب، ويرجع هو فيه؛ حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام. ورتب فيه أربعة عشر بابا[٣]؛ كل باب منها قائم بنفسه. وفى كل باب مسألة والجواب عنها؛ ليكون لمن نظر فيه حظ من الهداية. وضمن تلك الأبواب كتابا واحدا؛ وسماه كتاب كليلة ودمنة. ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير: ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة. وضمنه أيضا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه، وآخرته وأولاه؛ ويحضه[٤] على حسن طاعته للملوك ويجنبه ما تكون مجانبته خيرا له، ثم جعله باطنا وظاهرا كرسم سائر الكتب التى برسم الحكمة: فصار الحيوان لهوا، وما ينطق به حكمة وأدبا.

---

(١) اللجة: الماء الغزير.

(٢) القوت: الطعام والشراب والزاد.

(٣) ما جمع من المخطوطات والطبعات السابقة أكثر من ذلك.

(٤) يحضه: يحرضه ويشجعه.

فلما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق، وكيف يكون الصديقان، وكيف تقطع المودة الثابتة بينهما بحيلة ذى النميمة[١]. وأمر تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه فى أن جعله لهوا وحكمة. فذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام النقلة[٢] أفسدها وجهلت حكمتها. فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك، حتى فتق لهما[٣] العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين. فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم. وكانت الحكمة ما نطقا به. فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو، وعلموا أنها السبب فى الذى وضع لهم. ومالت إليه الجهال عجبا من محاورة بهيمتين، ولم يشكوا فى ذلك؛ واتخذوه لهوا، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذى وضع له؛ لأن الفيلسوف إنما كان غرضه فى الباب الأول أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ من أهل السعاية[٤] والتحرز[٥] ممن يوقع العداوة بين المتحابين: ليجر بذلك نفعا إلى نفسه. فلم يزل بيدبا وتلميذه فى المقصورة، حتى استتما عمل الكتاب فى مدة سنة. فلما تم الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد فماذا صنعت؟

فأنفذ إليه بيدبا: إنى على ما وعدت الملك. فليأمرنى بحمله، بعد أن يجمع أهل المملكة لتكون قراءتى هذا الكتاب بحضرتهم. فلما رجع الرسول إلى الملك سُر بذلك، ووعده يوما يجمع فيه أهل المملكة. ثم نادى فى أقاصى بلاد الهند[٦] ليحضروا قراءة الكتاب، فلما كان ذلك اليوم، أمر الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره؛ وكراسى لأبناء الملوك والعلماء. وأنفذ فأحضره. فلما جاءه الرسول قام فلبس الثياب التى كان يلبسها إذا دخل على الملوك

(١) النميمة: الوشاية، ويقصد بها: التحدث بين الناس لإثارة الخلاف بينهم.
(٢) النقلة: الذين يجمعون الكتب وينسخونها.
(٣) فتق لهما: أظهر لهما وأوضح.
(٤) السعاية: الوشاية والنميمة.
(٥) التحرز: التوقى والتجنب.
(٦) أقاصى بلاد الهند: أطرافها وحدودها كلها.

وهى المسوح السود، وحمل الكتاب تلميذه. فلما دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم، وقام الملك شاكرا. فلما قرب من الملك كفر له وسجد، ولم يرفع رأسه. فقال له الملك:

يا بيدبا ارفع رأسك، فإن هذا يوم هناءة وفرح وسرور، وأمره أن يجلس. فحين جلس لقراءة الكتاب، سأله عن معنى كل باب من أبوابه، وإلى أى شىء قصد فيه. فأخبره بغرضه فيه، وفى كل باب. فازداد الملك منه تعجبا وسرورا.

فقال له: يا بيدبا ما عدوت الذى فى نفسى؛ وهذا الذى كنت أطلب؛ فاطلب ما شئت وتحكم. فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجد.

وقال: أيها الملك أما المال فلا حاجة لى فيه، وأما الكسوة فلا أختار على لباسى هذا شيئا؛ ولست أخلى الملك من حاجة. قال الملك: يا بيدبا ما حاجتك؟ فكل حاجة لك قِبلنا مقضية[1].

قال: يأمر الملك أن يدون كتابى هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم، ويأمر بالمحافظة عليه: فإنى أخاف أن يخرج من بلاد الهند، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به، فالملك يأمر ألا يخرج من بيت الحكمة.

ثم دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز . ثم إنه لما ملك كسرى أنوشروان وكان مستأثرا[2] بالكتب والعلم والأدب والنظر فى أخبار الأوائل وقع له خبر الكتاب؛ فلم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقره فى خزائن فارس.

(١) مقضية: محقَّقة ومنفذة.

(٢) مستأثرا: مستبدّا بها ومتفردًا.

الباب الثاني

بعثة برزويه إلي بلاد الهند

تقديم

أما بعد فإن الله تعالى خلق الخلق برحمته، ومنَّ على عباده بفضله وكرمه ورزقهم ما يقدرون به على إصلاح معايشهم فى الدنيا، ويدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب فى الآخرة، وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومنَّ به عليهم العقل الذى هو الدعامة لجميع الأشياء، والذى لا يقدر أحد فى الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلا به. وكذلك طالب الآخرة المجتهد فى العمل المنجى به روحه لا يقدر على إتمام عمله وإكماله إلا بالعقل الذى هو سبب كل خير ومفتاح كل سعادة. فليس لأحد غنى عن العقل. والعقل مكتسب بالتجارب والأدب. وله غريزة مكنونة[١] فى الإنسان كامنة كالنار فى الحجر لا تظهر ولا يُرى ضوؤها حتى يقدحها قادح[٢] من الناس؛ فإذا قدحت ظهرت طبيعتها. وكذلك العقل كامن فى الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب. ومن رزق العقل ومن به عليه وأعين على صدق قريحته بالأدب حرص على طلب سعد جده، وأدرك فى الدنيا أمله، وحاز فى الآخرة ثواب الصالحين. وقد رزق الله الملك السعيد أنوشروان من العقل أفضله، ومن العلم أجزله[٣]؛ ومن المعرفة بالأمور أصوبها، ومن الأفعال أسدها، ومن البحث عن الأصول والفروع أنفعه؛ وبلغه من فنون اختلاف العلم، وبلوغ منزلة الفلسفة، ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله، حتى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم أن

(١) مكنونة: مستورة ومحجوبة.

(٢) قادح: أي يضرب الحجر ببعضه حتى يخرج من النار وكذلك الضوء منه.

(٣) أجزله: أكثره.

بلغه عن كتاب بالهند، علم أنه أصل كل أدب ورأس كل علم، والدليل على كل منفعة، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها، ومعرفة النجاة من هولها؛ فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يبحث له عن رجل أديب عاقل من أهل مملكته، بصير بلسان الفارسية، ماهر فى كلام الهند؛ ويكون بليغا باللسانين[1] جميعا، حريصا على طلب العلم مجتهدا فى استعمال الأدب، مبادرا فى طلب العلم، والبحث عن كتب الفلسفة. فأتاه برجل أديب كامل العقل والأدب، معروف بصناعة الطب، ماهر فى الفارسية والهندية يقال له برزويه؛ فلما دخل عليه كفر وسجد بين يديه.

فقال له الملك: يا برزويه: إنى قد اخترتك لما بلغنى من فضلك وعلمك وعقلك، وحرصك على طلب العلم حيث كان. وقد بلغنى عن كتاب بالهند مخزون فى خزائنهم، وقص عليه ما بلغه عنه، وقال له:

تجهز فإنى مرحلك إلى أرض الهند، فتلطف بعقلك وحسن أدبك ونافذ رأيك، لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قِبل علمائهم؛ فتستفيد بذلك وتفيدنا. وما قدرت عليه من كتب الهند مما ليس فى خزائننا منه شىء فاحمله معك، وخذ معك من المال ما تحتاج إليه، وعجل ذلك، ولا تقصر فى طلب العلوم وإن أكثرت فيه النفقة، فإن جميع ما فى خزائنى مبذول لك فى طلب العلوم. وأمر بإحضار المنجمين؛ فاختاروا له يوما يسير فيه، وساعة صالحة يخرج فيها. وحمل معه من المال عشرين جرابا، كل جراب فيه عشرة آلاف دينار.

فلما قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السوقة[2]، وسأل عن خواص الملك والأشراف والعلماء والفلاسفة؛ فجعل يغشاهم[3] فى منازلهم،

(١) بليغًا باللسانين: بليغًا باللغتين.
(٢) الرعية.
(٣) يغشاهم: يأتيهم.

ويتلقاهم بالتحية، ويخبرهم بأنه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والأدب، وأنه محتاج إلى معاونتهم فى ذلك، فلم يزل كذلك زمانا طويلا يتأدب عن علماء الهند بما هو عالم بجميعه؛ وكأنه لا يعلم منه شيئا؛ وهو فيما بين ذلك يستر بغيته[١] وحاجته، واتخذ فى تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء كثيرين من الأشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن أهل كل طبقة وصناعة، وكان قد اتخذ من بين أصدقائه رجلا واحدا قد اتخذه لسره وما يحب مشاورته فيه؛ للذى ظهر له من فضله وأدبه، واستبان له من صحة إخائه؛ وكان يشاوره فى الأمور، ويرتاح إليه فى جميع ما أهمه. إلا أنه كان يكتم منه الأمر الذى قدم من أجله لكى يبلوه[٢] ويخبره، وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سره. فقال له يوما وهما جالسان: يا أخى ما أريد أن أكتمك من أمرى فوق الذى كتمتك. فاعلم أنى لأمر قدمت، وهو غير الذى يظهر منى، والعاقل يكتفى من الرجل بالعلامات من نظره، حتى يعلم سر نفسه وما يضمره[٣] قلبه.

قال له الهندى: إنى وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له، وإياه تريد؛ وأنك تكتم أمرا تطلبه، وتظهر غيره؛ ما خفى علىَّ ذلك منك. ولكنى لرغبتى فى إخائك، كرهت أن أواجهك به. وإنه قد استبان ما تخفيه منى. فأما إذ أظهرت ذلك، وأفصحت به وبالكلام فيه، فإنى مخبرك عن نفسك، ومظهر لك سريرتك، ومعلمك بحالك التى قدمت لها؛ فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا[٤] النفيسة، فتذهب بها إلى بلادك، وتسُر بها ملكك. وكان قدومك بالمكر والخديعة. ولكنى لما رأيت صبرك، ومواظبتك على طلب حاجتك، والتحفظ من أن يسقط منك الكلام، مع طول مكثك عندنا، بشىء يستدل به على سريرتك وأمورك، ازددت

(١) بغيته: هدفه ومناله.

(٢) يبلوه: يختبره ويجربه.

(٣) يضمره: يخفيه.

(٤) لتسلبنا كنوزنا: لتنتزع كنوزنا قهرًا.

رغبة فى إخائك، وثقة بعقلك، فأحببت مودتك. فإنى لم أر فى الرجال رجلا هو أرصن[١] منك عقلا، ولا أحسن أدبا، ولا أصبر على طلب العلم ولا أكتم لسره منك؛ ولا سيما فى بلاد غربة، ومملكة غير مملكتك، عند قوم لا تعرف سنتهم. وإن عقل الرجل ليبين فى ثمانى خصال: الأولى الرفق. والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها. والثالثة طاعة الملوك، والتحرى لما يرضيهم. والرابعة معرفة الرجل موضع سره، وكيف ينبغى أن يطلع عليه صديقه. والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديبا بليغًا باللسان[٢]. والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظا. والسابعة أن يكون على لسانه قادرا، فلا يتكلم إلا بما يأمن تبعته. والثامنة إن كان بالمحفل[٣] لا يتكلم إلا بما يُسأل عنه. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعى الخير إلى نفسه. وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك، وبانت لى منك. فالله تعالى يحفظك، ويعينك على ما قدمت له؛ فمصادقتك إياى، وإن كانت لتسلبنى كنزى وفخرى وعلمى، تجعلك أهلا لأن تُسعف بحاجتك، وتشفع بطلبتك[٤]، وتعطى سؤلك[٥].

فقال له برزويه: إنى قد كنت هيأت كلاما كثيرا، وشعبت له شعوبا[٦]؛ وأنشأت له أصولا وطرقا؛ فلما انتهيت إلى ما بدأتنى به من اطلاعك على أمرى والذى قدمت له، وألقيته علىَّ من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول، اكتفيت باليسير من الخطاب معك، وعرفت الكبير من أمورى بالصغير من الكلام، واقتصرت به معك

(١) أثبت.
(٢) باللغة.
(٣) المحفل: مكان الاجتماع.
(٤) مطلوبك.
(٥) المسؤول عنه.
(٦) شعبت له شعوبًا: جعلته متشعبًا ومفصلًا.

على الإيجاز. ورأيت من إسعافك إياى بحاجتى ما دلنى على كرمك وحسن وفائك: فإن الكلام إذا ألقى إلى الفيلسوف، والسر إذا استودع إلى اللبيب الحافظ، فقد حصن وبلغ به نهاية أمل صاحبه، كما يحصن الشىء النفيس فى القلاع[١] الحصينة. قال له الهندى: لا شىء أفضل من المودة. ومن خلصت مودته كان أهلا أن يخلطه الرجل بنفسه، ولا يدخر عنه شيئا، ولا يكتمه سرا: فإن حِفظ السر رأس الأدب. فإذا كان السر عند الأمين الكتوم فقد احترز[٢] من التضييع؛ مع أنه خليق[٣] ألا يتكلم به؛ ولا يتم سر بين اثنين قد علماه وتفاوضاه. فإذا تكلم بالسر اثنان فلا بد من ثالث من جهة أحدهما؛ فإذا صار إلى الثلاثة فقد شاع وذاع، حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده ويكابر عنه؛ كالغيم[٤] إذا كان متقطعا فى السماء فقال قائل: هذا غيم متقطع، لا يقدر أحد على تكذيبه. وأنا قد يداخلنى من مودتك وخلطتك[٥] سرور لا يعدله شىء. وهذا الأمر الذى تطلبه منى أعلم أنه من الأسرار التى لا تُكتم؛ فلا بد أن يفشو ويظهر، حتى يتحدث به الناس. فإذا فشا فقد سعيت فى هلاكى هلاكا لا أقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر؛ لأن ملكنا فظ غليظ، يعاقب على الذنب الصغير أشد العقاب؛ فكيف مثل هذا الذنب العظيم؟ وإذا حملتنى المودة التى بينى وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يرد عقابه عنى شىء.

قال برزويه: إن العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه وأعانه على الفوز. وهذا الأمر الذى قدمت له، لمثلك ذخرته[٦]، وبك أرجو بلوغه؛ وأنا واثق بكرم

(١) القلاع: البروج.
(٢) احترز: حفظ.
(٣) خليق: جدير.
(٤) كالغيم: كالسحاب.
(٥) عشرتك.
(٦) ذخرته: جمعته وحفظته لوقت الحاجة.

طباعك ووفور عقلك، وأعلم أنك لا تخشى منى ولا تخاف أن أبديه؛ بل تخشى أهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه. وأنا أرجو ألا يشيع شيء من هذا الأمر: لأنى أنا ظاعن[١] وأنت مقيم، وما أقمت فلا ثالث بيننا. فتعاهدا على هذا جميعا. وكان الهندى خازن الملك، وبيده مفاتيح خزائنه. فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب. فأكب على تفسيره[٢] ونقله من اللسان الهندى إلى اللسان الفارسى، وأتعب نفسه، وأنصب بدنه[٣] ليلا ونهارا. وهو مع ذلك وجل[٤] وفزع من ملك الهند؛ خائف على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب فى وقت ولا يصادفه فى خزائنه. فلما فرغ من انتساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب. كتب إلى أنوشروان يعلمه بذلك. فلما وصل إليه الكتاب، سُر بذلك سرورا شديدا؛ ثم تخوف معاجلة المقادير أن تنغص عليه فرحه؛ فكتب إلى برزويه يأمره بتعجيل القدوم. فسار برزويه متوجها نحو كسرى. فلما رأى الملك ما قد مسه من الشحوب[٥] والتعب والنصب، قال له: أيها العبد الناصح الذى يأكل ثمرة ما قد غرس، أبشر وقر عينا: فإنى مشرفك وبالغ بك أفضل درجة. وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام.

فلما كان اليوم الثامن، أمر الملك أن يجتمع إليه الأمراء والعلماء. فلما اجتمعوا، أمر برزويه بالحضور. فحضر ومعه الكتب؛ ففتحها وقرأها على من حضر من أهل المملكة. فلما سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحا شديدا؛ وشكروا الله على ما رزقهم، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه؛ وأمر الملك أن تفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؛ وأمره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مال أو كسوة؛

(١) ظاعن: راحل ومفارق.
(٢) فأكب على تفسيره: أقبل عليه وشغل به.
(٣) أنصب بدنه: أرهق بدنه وأتعبه.
(٤) وجل: خائف.
(٥) تغير اللون إلى الاصفرار من السفر ونحوه.

وقال: يا برزويه إنى قد أمرت أن تجلس على مثل سريرى هذا، وتلبس تاجا، وتترأس على جميع الأشراف. فسجد برزويه للملك ودعا له وطلب من الله وقال: أكرم الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة، وأحسن عنى ثوابه وجزاءه؛ فإنى بحمد الله مستغن عن المال بما رزقنى الله على يد الملك السعيد الجد، العظيم الملك؛ ولا حاجة لى بالمال؛ لكن لما كلفنى الملك ذلك وعلمت أنه يسره، أنا أمضى إلى الخزائن فآخذ منها طلبا لمرضاته وامتثالا لأمره. ثم قصد خزانة الثياب فأخذ منها تختا[1] من طرائف خراسان من ملابس الملوك. فلما قبض برزويه ما اختاره ورضيه من الثياب قال: أكرم الله الملك ومد فى عمره أبدا. لا بد أن الإنسان إذا أُكرم وجب عليه الشكر؛ وإن كان قد استوجبه تعبا ومشقة فقد كان فيهما رضا الملك. وأما أنا فما لقيته من عناء وتعب ومشقة، لما أعلم أن لكم فيه الشرف يا أهل هذا البيت! فإنى لم أزل إلى هذا اليوم تابعا رضاكم، أرى العسير فيه يسيرا. والشاق هينا، والنصب والأذى سرورا ولذة. لما أعلم أن لكم فيه رضا وقربة عندكم. ولكنى أسألك أيها الملك حاجة تسعفنى بها، وتعطينى فيها سؤلى: فإن حاجتى يسيرة، وفى قضائها فائدة كثيرة.

قال أنوشروان: قل فكل حاجة لك قبلنا مقضية: فإنك عندنا عظيم؛ ولو طلبت مشاركتنا فى ملكنا لفعلنا، ولم نرد طلبتك؛ فكيف ما سوى ذلك؟ فقل ولا تحتشم[2]؛ فإن الأمور كلها مبذولة لك.

قال برزويه: أيها الملك لا تنظر إلى عنائى[3] فى رضاك وانكماشى فى طاعتك[4]؛ فإنما أنا عبدك يلزمنى بذل مهجتى فى رضاك، ولو لم تجزنى لم يكن ذلك عندى عظيما ولا واجبا على الملك؛ ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلى مجازاتى؛ وخصني وأهل

(١) وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) لا تخجل من مطلوبك.

(٣) عنائى: ذلى وخضوعى.

(٤) انكماشى في طاعتك: أي إنني جاد ومشمر في طاعتك.

بيتى بعلو المرتبة ورفع الدرجة؛ حتى لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل. فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

قال أنوشروان: اذكر حاجتك، فعليَّ ما يسرك.

فقال برزويه: حاجتى أن يأمر الملك، أعلاه الله تعالى، وزيره بزرجمهر ابن البختكان؛ ويقسم عليه أن يعمل فكره، ويجمع رأيه، ويجهد طاقته، ويفرغ قلبه فى نظم تأليف كلام متقن محكم؛ ويجعله بابا يذكر فيه أمرى ويصف حالى؛ ولا يدع من المبالغة فى ذلك أقصى ما يقدر عليه. ويأمره إذا استتمه[١] أن يجعله أول الأبواب التى تقرأ قبل باب الأسد والثور: فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بى وبأهلى غاية الشرف وأعلى المراتب، وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيا على الأبد حيثما قرئ هذا الكتاب.

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبة إبقاء الذكر استحسنوا طلبته واختياره، وقال كسرى: حبا وكرامة لك يا برزويه، إنك لأهل أن تسعف بحاجتك؛ فما أقل ما قنعت[٢] به وأيسره عندنا! وإن كان خطره[٣] عندك عظيما.

ثم أقبل أنوشروان على وزيره بزرجمهر فقال له: قد عرفت مناصحة برزويه لنا، وتجشمه[٤] المخاوف والمهالك فيما يقربه منا، وإتعابه بدنه فيما يسرنا؛ وما أتى به إلينا من المعروف، وما أفادنا الله على يده من الحكمة والأدب الباقى لنا فخره، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك على ما كان منه، فلم تمل نفسه إلى شىء من ذلك؛ وكان بغيته وطلبته منا أمرا يسيرا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده؛

(١) استتمه: فرغ من إتمامه.

(٢) قنعت: رضيت.

(٣) خطره: شأنه وقدره.

(٤) تجشمه: تعرضه للمخاوف والمهالك.

فإنى أحب أن تتكلم فى ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته. واعلم أن ذلك مما يسرنى، ولا تدع شيئا من الاجتهاد والمبالغة إلا بلغته، وإن نالتك فيه مشقة. وهو أن تكتب بابا مضارعا[1] لتلك الأبواب التى فى الكتاب؛ وتذكر فيه فضل برزويه، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه، وتنسبه إليه وإلى حسبه وصناعته، وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند فى حاجتنا؛ وما أفدنا على يديه من هنالك؛ وشرفنا به وفضلنا على غيرنا؛ وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب[2] فى مدحه، وبالغ فى ذلك أفضل المبالغة واجتهد فى ذلك اجتهادا يسر برزويه وأهل المملكة. فإن برزويه أهل لذلك منى ومن جميع أهل المملكة ومنك أيضا: لمحبتك للعلوم. واجهد أن يكون غرض هذا الكتاب الذى ينسب إلى برزويه أفضل من أغراض تلك الأبواب عند الخاص والعام، وأشد مشاكلة[3] لحال هذا العلم: فإنك أسعد الناس كلهم بذلك: لانفرادك بهذا الكتاب؛ واجعله أول الأبواب. فإذا أنت عملته ووضعته فى موضعه فأعلمنى لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم، فيظهر فضلك واجتهادك فى محبتنا؛ فيكون لك بذلك فخر. فلما سمع بزرجمهر مقالة الملك خر له ساجدا، وقال: أدام الله لك أيها الملك البقاء، وبلغك أفضل منازل الصالحين فى الآخرة والأولى؛ ولقد شرفتنى بذلك شرفا باقيا إلى الأبد. ثم خرج بزرجمهر من عند الملك، فوصف برزويه من أول يوم دفعه أبواه إلى المعلم، ومضيه إلى بلاد الهند فى طلب العقاقير والأدوية؛ وكيف تعلم خطوطهم ولغتهم؛ إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهند فى طلب الكتاب. ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمرا إلا نسقه، وأتى به بأجود ما يكون من الشرح. ثم أعلم الملك بفراغه منه .

(١) مضارعًا: متشابهًا.

(٢) التقريظ والإطناب: المبالغة فى المدح.

(٣) مشاكلة: مماثلة.

فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته، وأدخلهم إليه؛ وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب، وبرزويه قائم إلى جانب بزرجمهر. ففرح الملك بما أتى به بزرجمهر من الحكمة والعلم. ثم أثنى الملك وجميع من حضره على بزرجمهر، وشكروه ومدحوه؛ وأمر له الملك بمال جزيل وكسوة وحلى وأوانٍ؛ فلم يقبل من ذلك شيئا غير كسوة كانت من ثياب الملوك. ثم شكر له ذلك برزويه وقبل رأسه ويده؛ وأقبل برزويه على الملك وقال: أدام الله لك الملك والسعادة فقد بلغت بى وبأهلى غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعه الكتاب فى أمرى وإبقاء ذكرى.

الباب الثالث

عرض الكتاب

هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التى أُلهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا. ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير. فاجتمع لهم بذلك خلال[١]. أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها. وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا: فاختاره الحكماء لحكمته. والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم[٢]. وكان كالرجل الذى لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح[٣] فيما يعمله من أمر معيشته؛ فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب.

وينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له؛ وإلى أيِّ غاية جرى مؤلفه فيه عند ما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح؛ وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا: فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى، ولا أى ثمرة يجتنى منها، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب. وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شىء يرجع إليه نفعه. ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب؛ من غير إعمال الروية فيما يقرؤه، كان خليقا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذى زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز، فظهر له موضع آثار كنز؛ فجعل يحفر ويطلب، فوقع على شىء من

(١) خلال: خصال.

(٢) مرقوم: مخطوط.

(٣) الكد والمشقة.

عين وورق[1]؛ فقال فى نفسه: إن أنا أخذت فى نقل هذا المال قليلا قليلا طال على، وقطعنى الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه؛ ولكن سأستأجر أقواما يحملونه إلى منزلى، وأكون أنا آخرهم، ولا يكون بقى ورائى شىء يشغل فكرى بنقله، وأكون قد استظهرت[2] لنفسى فى إراحة بدنى عن الكد بيسير أجرة أعطيهم إياها. ثم جاء بالحمالين، فجعل يحمل كل واحد منهم ما يطيق، فينطلق به إلى منزله فيفوز به؛ حتى لم يبق من الكنز شىء. فانطلق خلفهم إلى منزله: فلم يجد فيه من المال شيئا، لا قليلا ولا كثيرا. وإذا كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه. ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب: لأنه لم يفكر فى آخر أمره. وكذلك من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه؛ كما لو أن رجلا قدم له جوز[3] صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره؛ وكان أيضا كالرجل الذى طلب علم الفصيح من كلام الناس؛ فأتى صديقا له من العلماء، له علم بالفصاحة، فأعلمه حاجته إلى علم الفصيح؛ فرسم له صديقه فى صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه، فانصرف المتعلم إلى منزله؛ فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها، ثم إنه جلس ذات يوم فى محفل من أهل العلم والأدب، فأخذ فى محاورتهم؛ فجرت له كلمة أخطأ فيها؛ فقال له بعض الجماعة: إنك قد أخطأت؛ والوجه غير ما تكلمت به. فقال وكيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء؛ وهى فى منزلى؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه وزاده ذلك قربا من الجهل وبعدا من الأدب.

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه. ينبغى له أن يعمل بما علم منه لينتفع به؛ ويجعله مثالا لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك، كان مثله كالرجل

(١) ذهب وفضة.
(٢) استظهرت: استعنت
(٣) الجوز: ثمر يؤكل.

الذى زعموا أن سارقا تسور[1] عليه وهو نائم فى منزله، فعلم به فقال: والله لأسكتن حتى أنظر ماذا يصنع، ولا أذعره[2]؛ ولا أعلمه أنى قد علمت به. فإذا بلغ مراده قمت إليه، فنغصت ذلك عليه.

ثم إنه أمسك عنه. وجعل السارق يتردد، وطال تردده فى جمعه ما يجده، فغلب الرجل النعاس فنام، وفرغ اللص مما أراد، وأمكنه الذهاب. واستيقظ الرجل، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به. فأقبل على نفسه يلومها، وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص: إذ لم يستعمل فى أمره ما يجب. فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة. وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به؛ وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما. ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف، ثم سلكه على علم به، سمى جاهلا؛ ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله. ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره، كان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشرَه على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته. وأقل الناس عذرا فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة؛ غير أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير: إذ كانت له عينان يبصر بهما؛ وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه، ولا يكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره، ويكون كالعين التى يشرب الناس ماءها وليس لها فى ذلك شىء من المنفعة،

(١) تسور: تسلق.

(٢) أذعره: أرهبه.

وكدودة القز التى تحكم صنعته ولا تنتفع به. فينبغى لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه[١]، فإن خلالا ينبغى لصاحب الدنيا أن يقتنيَها ويقبسها: منها العلم والمال. ومنها اتخاذ المعروف. وليس للعالم أن يعيب امرَأ بشىء فيه مثله، ويكون كالأعمى الذى يعير الأعمى بعماه.

وينبغى لمن طلب أمرا أن يكون له فيه غاية ونهاية، ويعمل بها، ويقف عندها؛ ولا يتمادى فى الطلب؛ فإنه يقال: من سار إلى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيته[٢]؛ وأنه كان حقيقا ألا يعنى[٣] نفسه فى طلب ما لا حد له، وما لم ينله أحد قبله، ولا يتأسف[٤] عليه؛ ولا يكون لدنياه مؤثرا على آخرته: فإن من لم يعلق قلبه بالغايات قلت حسرته عند مفارقتها. وقد يقال فى أمرين إنهما يجملان بكل أحد: أحدهما النسك[٥] والآخر المال الحلال. ولا يليق بالعاقل أن يؤنب نفسه على ما فاته وليس فى مقدوره؛ فربما أتاح الله له ما يهنأ به ولم يكن فى حسبانه. ومن أمثال هذا أن رجلا كان به فاقة[٦] وجوع وعرى، فألجأه ذلك إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه، فلم يكن عند أحد منهم فضل يعود به عليه. فبينما هو ذات ليلة فى منزله إذ بصر[٧] بسارق فيه؛ فقال: والله ما فى منزلى شىء أخاف عليه: فليجهد السارق جهده. فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطة[٨]، فقال السارق:

والله ما أحب أن يكون عنائى الليلة باطلا. ولعلى لا أصل إلى موضع آخر، ولكن

(١) يقبسه: يستفيد منه..
(٢) مطيته: ركوبته.
(٣) يُعَنِّي: يتعب ويرهق..
(٤) يتأسف: يتندم.
(٥) النسك: الشعائر التعبدية..
(٦) فاقة: فقر واحتياج.
(٧) بصر به: أبصره.
(٨) الحنطة: الطحين (الدقيق).

سأحمل هذه الحنطة. ثم بسط قميصه ليصب عليه الحنطة.

فقال الرجل: أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائى سواها؟ فيجتمع على مع العرى ذهاب ما كنت أقتات به. وما تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلا أهلكتاه. ثم صاح بالسارق، وأخذ هراوة[1] كانت عند رأسه؛ فلم يكن للسارق حيلة إلا الهرب منه، وترك قميصه ونجا بنفسه؛ وغدا الرجل به كاسيا.

وليس ينبغى أن يركن إلى مثل هذا ويدع ما يجب عليه من الحذر والعمل فى مثل هذا لصلاح معاشه؛ ولا أن ينظر إلى من تؤاتيه المقادير وتساعده على غير التماس منه: لأن أولئك فى الناس قليل؛ والجمهور منهم من أتعب نفسه فى الكد والسعى فيما يصلح أمره وينال به ما أراد. وينبغى أن يكون حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه؛ ولا يتعرض لما يجلب عليه العناءَ والشقاء؛ فيكون كالحمامة التى تفرخ الفراخ فتؤخَذ وتذبح، ثم لا يمنعها ذلك أن تعود فتفرخ موضعها، وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح.

وقد يقال: إن الله تعالى قد جعل لكل شىء حدا يوقف عليه. ومن تجاوز فى أشياء حدها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها. ويقال: من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه. ويقال فى ثلاثة أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها وبذل جهده فيها: منها أمر معيشته؛ ومنها ما بينه وبين الناس؛ ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعدُ. وقد قيل فى أمور من كن فيه لم يستقم له عمل. منها التوانى؛ ومنها تضييع الفرص؛ ومنها التصديق لكل مخبر. فرب مخبر بشىء عقله ولا يعرف استقامته فيصدقه. وينبغى للعاقل أن يكون لهواه متهما؛ ولا يقبل من كل أحد حديثا؛ ولا يتمادى فى الخطأ إذا ظهر له خطؤه ولا يقدم على أمر حتى يتبين له الصواب، وتتضح له الحقيقة؛ ولا يكون كالرجل الذى يحيد عن الطريق، فيستمر على الضلال، فلا يزداد فى السير

(١) هراوة: العصا الغليظة الضخمة.

إلا جُهدا، وعن القصد إلا بعدا؛ وكالرجل الذى تقذى[١] عينه فلا يزال يحكها، وربما كان ذلك الحك سببا لذهابها. ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم، ويجب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره، فإنه من فعل ذلك كان خليقا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه، فإنه يقال إنه كان رجل تاجر، وكان له شريك، فاستأجرا حانوتا[٢]، وجعلا متاعهما فيه. وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت؛ فأضمر فى نفسه أن يسرق عدلا[٣] من أعدال رفيقه؛ ومكر الحيلة فى ذلك، وقال: إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رزمة[٤] من رزمى ولا أعرفها؛ فيذهب عنائى وتعبى باطلا. فأخذ رداءه، وألقاه على العدل الذى أضمر أخذه. ثم انصرف إلى منزله.

وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله، فقال: والله هذا رداء صاحبى؛ ولا أحسبه إلا قد نسيه. وما الرأى أن أدعه هاهنا؛ ولكن أجعله على رزمه؛ فلعله يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحب.

ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه، وأقفل الحانوت، ومضى إلى منزله. فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه[٥] على ما عزم عليه، وضمن له جعلا على حمله؛ فصار إلى الحانوت؛ فالتمس الإزار[٦] فى الظلمة فوجده على العدل؛ فاحتمل ذلك العدل، وأخرجه هو والرجل، وجعلا يتراوحان[٧] على حمله؛ حتى أتى منزله، ورمى نفسه تعبا.

---

(١) القذى: الغبار ونحوه.
(٢) حانوت: دكان أو محل للتجارة.
(٣) عدلاً: متاعًا متشابهًا لأمتعة رفيقه.
(٤) رزمة: مجموعة من الثياب في حيز واحد.
(٥) واطأه: وافقه.
(٦) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
(٧) يتراوحان: يتبادلان حمله.

فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله؛ فندم أشد الندامة. ثم انطلق نحو الحانوت، فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ووجد العدل مفقودا: فاغتم لذلك غما شديدا؛ وقال:

واسوءتاه من رفيق صالح قد ائتمننى على ماله وخلفنى فيه! ماذا يكون حالى عنده؟ ولست أشك فى تهمته إياى. ولكن قد وطنت[1] نفسى على غرامته. ثم أتى صاحبه فوجده مغتما، فسأله عن حاله؛ فقال إنى قد تفقدت الأعدال، وفقدت عدلا من أعدالك، ولا أعلم بسببه، وإنى لا أشك فى تهمتك إياى؛ وإنى قد وطنت نفسى على غرامته.

فقال له: يا أخى لا تغتم: فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان، والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير؛ وصاحبهما مغرور أبدا، وما عاد وبال البغى[2] إلا على صاحبه؛ وأنا أحد من مكر وخدع واحتال.

فقال له صاحبه: وكيف كان ذلك؟

فأخبره بخبره، وقص عليه قصته.

فقال له رفيقه: ما مثلك إلا مثل اللص والتاجر.

فقال له: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن تاجرا كان له فى منزله خابيتان[3] إحداهما مملوءة حنطة، والأخرى مملوءة ذهبا. فترقبه بعض اللصوص زمانا؛ حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل؛ فتغفله[4] اللص. ودخل المنزل، وكمن فى بعض نواحيه. فلما هم بأخذ الخابية التى فيها الدنانير أخذ التى فيها الحنطة، وظنها التى فيها الذهب؛ ولم يزل فى

(١) وطنت: ألزمتها.

(٢) وبال البغى: عاقبة الظلم.

(٣) الخابية: الوعاء الذى يحفظ فيه الأشياء المدخرة.

(٤) اغتنم غفلته اللص.

كد وتعب حتى أتى بها منزله فلما فتحها وعلم ما فيها ندم.

قال له الخائن: ما أبعدت المثل، ولا تجاوزت القياس؛ وقد اعترفت بذنبى وخطئى عليك، وعزيز على أن يكون هذا كهذا. غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء.

فقبل الرجل معذرته، وأضرب عن توبيخه[١] وعن الثقة به؛ وندم هو عند ما عاين من سوء فعله وتقديم جهله.

وقد ينبغى للناظر فى كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه[٢]، بل يشرف[٣] على ما يتضمن من الأمثال، حتى ينتهى منه؛ ويقف عند كل مثل وكلمة، ويعمل فيها رويته[٤]، ويكون مثل أصغر الإخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير، فتنازعوه[٥] بينهم؛ فأما الكبيران فإنهما أسرعا فى إتلافه وإنفاقه فى غير وجهه؛ وأما الصغير فإنه عند ما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما وتخليهما[٦] من المال، أقبل على نفسه يشاورها وقال: يا نفسى إنما المال يطلبه صاحبه، ويجمعه من كل وجه: لبقاء حاله، وصلاح معاشه ودنياه، وشرف منزلته فى أعين الناس، واستغنائه عما فى أيديهم، وصرفه فى وجهه: من صلة الرحم، والإنفاق على الولد، والإفضال على الإخوان. فمن كان له مال ولا ينفقه فى حقوقه، كان كالذى يعد فقيرا وإن كان موسرا. وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه، لم يعدم الأمرين جميعا من دنيا تبقى عليه، وحمد يضاف إليه؛ ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه التى علمت، لم يلبث[٧] أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة. ولكن الرأى أن أمسك هذا المال، فإنى أرجو أن ينفعنى الله به: ويغنى

---

(١) توبيخه: تأنيبه.

(٢) التزاويق: التصاوير والرسوم وما شاكلها.

(٣) المراد هنا: يدقق ويتأمل.

(٤) الروية: التمهل وعدم العجلة.

(٥) تنازعوه: تناولوه بينهم.

(٦) تخليهما: خلوهما وفراغهما.

(٧) لم يلبث: لم يمكث ولم يستمر.

أخوىَّ على يدى: فإنما هو مال أبى ومال أبيهما. وإن أولى الإنفاق على صلة الرحم وإن بعد، فكيف بأخوىَّ؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما[١] ماله.

وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر[٢]، ويلتمس جواهر معانيه، ولا يظن أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور: فينصرف بذلك عن الغرض المقصود. ويكون مثله مثل الصياد الذى كان فى بعض الخلجان[٣] يصيد فيه السمك فى زورق[٤] فرأى ذات يوم فى أرض الماء صدفة تتلألأ حَسنا، فتوهمها جوهرا له قيمة وكان قد ألقى شبكته فى البحر، فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه، فخلاها وقذف نفسه فى الماء ليأخذ الصدفة، فلما أخرجها وجدها فارغة لا شىء فيها مما ظن. فندم على ترك ما فى يده للطمع، وتأسف على ما فاته. فلما كان اليوم الثانى تنحى عن ذلك المكان، وألقى شبكته، فأصاب حوتا صغيرا، ورأى أيضا صدفة سنية[٥]، فلم يلتفت إليها، وساء ظنه بها، فتركها.

فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها، فوجد فيها درة[٦] تساوى أموالا. وكذلك الجهال إذا أغفلوا أمر التفكير فى هذا الكتاب، وتركوا الوقوف على أسرار معانيه، وأخذوا بظاهره. ومن صرف همته إلى النظر فى أبواب الهزل، كان كرجل أصاب أرضا طيبة حرة وحَبا صحيحا، فزرعها وسقاها، حتى إذا قرب خيرها وأينعت[٧]،

---

(١) شاطرهما: قاسمهما وناصفهما.

(٢) ضجر: ملل وتأفف.

(٣) خلجان: جمع خليج وهو: امتداد من الماء مقتطع من النهر.

(٤) الزورق: القارب يدفع بالمجاديف أو المركب الكبير.

(٥) سنية: ثمينة.

(٦) درة: لؤلؤة.

(٧) أينعت: طابت ونضجت.

تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك، فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة.

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض:

أحدها: ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، فتُستمال به قلوبهم: لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان.

والثانى: إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان: ليكون أنسا لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة فى تلك الصور.

والثالث: أن يكون على هذه الصفة: فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا.

والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة.

انقضى باب عرض الكتاب

الباب الرابع

بـــرزويـــه

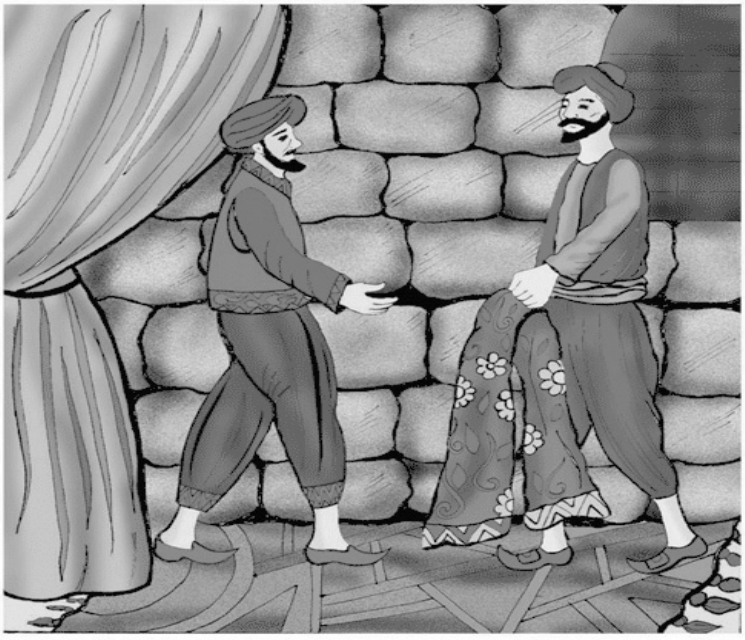

قال برزويه رأس أطباء فارس، وهو الذى تولى انتساخ هذا الكتاب، وترجمه من كتب الهند (وقد مضى ذكر ذلك من قبل):

إن أبى كان من المقاتلة، وكانت أمى من عظماء بيوت الزمازمة[١]. وكان منشئى فى نعمة كاملة، وكنت أكرم ولد أبويَّ عليهما؛ وكانا بى أشد احتفاظا من دون إخوتى، حتى إذا بلغت سبع سنين، أسلمانى[٢] إلى المؤدب؛ فلما حذقت[٣] الكتابة، شكرت أبوى؛ ونظرت فى العلم، فكان أول ما ابتدأت به، وحرصت عليه، علم الطب: لأنى كنت عرفت فضله. وكلما ازددت منه علما ازددت فيه حرصا، وله اتباعا. فلما همت نفسى بمداواة المرضى، وعزمت على ذلك آمرتها[٤] ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس، وفيها يرغبون، ولها يسعون، فقلت: أى هذه الخلال أبتغى فى علمى؟ وأيها أحرى بى فأدرك منه حاجتى؟ آلمال، أم الذكر، أم اللذات، أم الآخرة؟وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه، لا يبتغى إلا الآخرة، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة: لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوى شيئا؛ مع أنى قد وجدت فى كتب الأولين أن الطبيب الذى يبتغى بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا. وإن مثله مثل الزارع الذى يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب، ثم هى لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع يانع الزرع. فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة، فلم أدع مريضا أرجو له البرء، وآخر لا أرجو له ذلك، إلا أنى أطمع أن يخف عنه بعض المرض، إلا بالغت فى مداواته ما أمكننى القيام عليه بنفسى؛ ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح، وأعطيته من الدواء ما يعالج به. ولم أرد ممن فعلت معه

(١) الزمازمة: طائفة من الفرس.

(٢) أسلمانى: قاداني.

(٣) الحاذق: الماهر.

(٤) آمرتها: شاورتها.

ذلك جزاء ولا مكافأة؛ ولم أغبط[١] أحدا من نظرائى[٢] الذين هم دونى فى العلم وفوقى فى الجاه والمال وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا. ولما تاقت[٣] نفسى إلى غشيانهم[٤] وتمنت منازلهم أثبت لها الخصومة[٥]؛ فقلت لها: يا نفس، أما تعرفين نفعك من ضرك؟ ألا تنتهين عن تمنى ما لا يناله أحد إلا قَلَّ انتفاعه به، وكثر عناؤه فيه، واشتدت المئونة عليه وعظم المشقة لديه بعد فراقه؟يا نفسى، أما تذكرين ما بعد هذه الدار: فينسيك ما تشرهين إليه[٦] منها؟ ألا تستحيين من مشاركة الفجار فى حب هذه العاجلة الفانية التى من كان فى يده شىء منها فليس له، وليس بباق عليه؛ فلا يألفها إلا المغترون الجاهلون؟يا نفس انظرى فى أمرك، وانصرفى عن هذا السفه، وأقبلى بقوتك وسعيك على تقديم الخير، وإياك والشر؛ واذكرى أن هذا الجسد موجود لآفات[٧]، وأنه مملوء أخلاطا فاسدة قذرة، تعقدها الحياة، والحياة إلى نفاد؛ كالصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت ووضعت، يجمعها مسمار واحد، ويضم بعضها إلى بعض، فإذا أُخذ ذلك المسمار تساقطت الأوصال. يا نفس، لا تغتري بصحبة أحبائك وأصحابك، ولا تحرصي على ذلك كل الحرص: فإن صحبتهم- على ما فيها من السرور- كثيرة المئونة، وعاقبة ذلك الفراق. ومثلها مثل المغرفة التى تستعمل فى جدتها لسخونة المرق، فإذا انكسرت صارت وقودا.

يا نفس، لا يحملنك أهلك وأقاربك على جمع ما تهلكين فيه، إرادة صلتهم[٨]؛ فإذا

---

(١) أغبط: أحسد، وأتمني ما عنده.

(٢) نظرائى: أمثالى.

(٣) تاقت: اشتاقت.

(٤) غشيانهم: إتيانهم.

(٥) أعلمتها بالمخاصمة.

(٦) تشرهين إليه: تحرصين عليه وتشتهينه.

(٧) آفات: مفاسد.

(٨) إرادة صلتهم: التقرب إليهم ومدهم بالمنافع.

أنت كالدخنة الأرجة[1] التى تحترق ويذهب آخرون بريحها. يا نفس، لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلى إلى العاجلة فى استعجال القليل وبيع الكثير باليسير؛ كالتاجر الذى كان له ملء بيت من الصندل، فقال: إن بعته وزنا طال على، فباعه جزافا[2] بأبخس الثمن. وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة؛ وكل على كل راد، وله عدو ومغتاب، ولقوله مخالف. فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا؛ وعرفت أنى إن صدقت أحدا منهم لا علم لى بحاله، كنت فى ذلك كالمصدق المخدوع الذى زعموا فى شأنه أن سارقا علا ظهر بيت رجل من الأغنياء، وكان معه جماعة من أصحابه، فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم، فعرف امرأته ذلك؛ فقال لها:

رويدا إنى لأحسب اللصوص قد علوا ظهر البيت، فأيقظينى بصوت يسمعه اللصوص وقولى ألا تخبرنى أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة؟ فإذا نهيتك عن هذا السؤال فألحى على بالسؤال.

ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها؛ وأنصت اللصوص إلى سماع قولهما.

فقال لها الرجل: أيتها المرأة، قد ساقك القدر إلى رزق واسع كثير: فكلى واسكتى، ولا تسألى عن أمر إن أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد، فيكون فى ذلك ما أكره وتكرهين. فقالت المرأة:

أخبرنى أيها الرجل، فلعمرى ما بقربنا أحد يسمع كلامنا.

فقال لها: فإنى أخبرك أنى لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة.

قالت: وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟

قال: ذلك لعلم أصبته فى السرقة، وكان الأمر علىَّ يسيرا، وأنا آمن من أن يتهمنى أحد أو يرتاب[3] فىَّ.

---

(١) كالدخنة الأرجة: كالبخور الطيب الرائحة.

(٢) باعه جزافًا: باعه بالتقدير بدون وزن.

(٣) يرتاب: يتشكك.

قالت: فاذكر لى ذلك.

قال: كنت أذهب فى الليلة المقمرة، أنا وأصحابى، حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا؛ فأنتهى إلى الكوة[١] التى يدخل منها الضوء فأرقى بهذه الرقية:

وهى شولم شولم سبع مرات، وأعتنق الضوء؛ فلا يحس بوقوعى أحد، فلا أدع مالا ولا متاعا إلا أخذته. ثم أرقى بتلك الرقية سبع مرات، وأعتنق الضوء؛ فيجذبنى؛ فأصعد إلى أصحابى، فنمضى سالمين آمنين. فلما سمع اللصوص ذلك قالوا: قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال؛ ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا[٢]؛ فقام قائدهم إلى مدخل الضوء؛ وقال:

شولم شولم سبع مرات؛ ثم اعتنق الضوء لينزل إلى أرض المنزل، فوقع على أم رأسه منكسا. فوثب إليه الرجل بهراوته[٣]، وقال له: من أنت؟

قال: أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبدا، وهذه ثمرة رقيتك.

فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون، ولم آمن إن صدقته أن يوقعنى فى مهلكة عدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها؛ فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنه فيها، ولم أرَ فيما كلمونى به شيئا يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه.

فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه، الرأى أن ألزم دين آبائى وأجدادى الذى وجدتهم عليه. فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسى فى لزوم دين الآباء والأجداد، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة؛ بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها، وللنظر فيها؛ فهجس[٤] فى قلبى وخطر على بالى قرب الأجل وسرعة انقطاع

(١) الكوة: خرق فى السقف.

(٢) هجعا: ناما.

(٣) بهراوته: بعصاه.

(٤) فهجس: خطر.

الدنيا واعتباط[١] أهلها وتخرم[٢] الدهر حياتهم. ففكرت فى ذلك. فلما خفت من التردد والتحول، رأيت ألا أتعرض لما أتخوف منه المكروه؛ وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان. فكففت يدى عن القتل والضرب، وطرحت نفسى عن المكروه والغصب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان[٣] والغيبة، وأضمرت فى نفسى ألا أبغى على أحد، ولا أكَذِّب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب؛ وزايلت[٤] الأشرار بقلبى، وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدى، ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين ، ووجدت مكسبه إذا وفق الله وأعان يسيرا؛ ووجدته يدل على الخير ويشير بالنصح، فعل الصديق بالصديق؛ ووجدته لا ينقص على الإنفاق منه؛ بل يزداد جدة[٥] وحسنا؛ ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه، ولا من الماء أن يغرقه، ولا من النار أن تحرقه، ولا من اللصوص أن تسرقه، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزقه.ووجدت الرجل الساهى اللاهى المؤثر اليسير يناله فى يومه ويعدمه فى غده على الكثير الباقى نعيمه، يصيبه ما أصاب التاجر الذى زعموا أنه كان له جوهر نفيس، فاستأجر لثقبه رجلا، اليوم بمائة دينار؛ وانطلق به إلى منزله ليعمل؛ وإذا فى ناحية البيت صنج[٦] موضوع. فقال التاجر للصانع: هل تحسن أن تلعب بالصنج؟ قال: نعم. وكان بلعبه ماهرا.

فقال التاجر: دونك والصنج فأسمعنا ضربك به. فأخذ الرجل الصنج، ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح، والصوت الرفيع، والتاجر يشير بيده ورأسه طربا،

---

(١) اعتباط: هلاك بدون سبب مرضى.

(٢) تخرم: استئصال..

(٣) البهات: ذكر الناس بما ليس فيهم.

(٤) زايلت: فارقت.

(٥) هى ضد القدم.

(٦) صنج: آلة موسيقية ليس لها أوتار.

حتى أمسى. فلما حان الغروب قال الرجل للتاجر: مر لى بالأجرة. فقال له التاجر: وهل عملت شيئا تستحق به الأجرة؟

فقال له: عملت ما أمرتنى به، وأنا أجيرك، وما استعملتنى عملت.

ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار. وبقى جوهره غير مثقوب.

فلم أزدد فى الدنيا وشهواتها نظرا، إلا ازددت فيها زهادة ومنها هربا. ووجدت النسك[١] هو الذى يمهد للمعاد كما يمهد الوالد لولده؛ ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم؛ ووجدت الناسك قد تدبر فعلته بالسكينة فشكر؛ وتواضع وقنع فاستغنى، ورضيَ ولم يهتم، وخلع الدنيا فنجا من الشرور، ورفض الشهوات فصار طاهرا، واطَّرح الحسد[٢] فوجبت له المحبة، وسخت[٣] نفسه بكل شىء؛ واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة، ولم يخف الناس ولم يدب إليهم فسلم منهم. فلم أزدد فى أمر النسك نظرا، إلا ازددت فيه رغبة، حتى هممت أن أكون من أهله. ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت فى النسك، أن أضعف عن ذلك؛ ورفضت أعمالا كنت أرجو عائدتها؛ وقد كنت أعملها فأنتفع بها فى الدنيا، فيكون مثلى فى ذلك مثل الكلب الذى مر بنهر وفى فيه (فمه) ضلع؛ فرأى ظلها فى الماء، فهوى ليأخذها، فأتلف ما كان معه؛ ولم يجد فى الماء شيئا. فهبت النسك مهابة شديدة، وخفت من الضجر وقلة الصبر، وأردت الثبوت على حالتى التى كنت عليها. ثم بدا لى أن أسبر[٤] ما أخاف ألا أصبر عليه من الأذى والضيق والخشونة فى النسك؛ وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء؛ وكان عندى أنه ليس شىء من شهوات الدنيا ولذاتها إلا وهو متحول إلى الأذى ومولد للحزن. فالدنيا كالماء الملح

---

(١) النسك: العبادة.

(٢) اطرح الحسد: ألقاه عن نفسه.

(٣) سخت: جادت.

(٤) أسبر: أحذر وأقدّر.

الذى لا يزداد شاربه شربا، إلا ازداد عطشا. وهى كالعظم الذى يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم؛ فلا يزال يطلب ذلك حتى يدمى فاه. وكالحدأة[١] التى تظفر بقطعة من اللحم، فيجتمع عليها الطير، فلا تزال تدور وتدأب حتى تعى وتعطب[٢]، فإذا تعبت ألقت ما معها، وكالكوز من العسل الذى فى أسفله السم الذى يذاق منه حلاوة عاجلة وآخره موت ذعاف[٣]، وكأحلام النائم التى يفرح بها الإنسان فى نومه، فإذا استيقظ ذهب الفرح. فلما فكرت فى هذه الأمور، رجعت إلى طلب النسك؛ وهزنى الاشتياق إليه؛ ثم خاصمت نفسى إذ هى فى شرورها سارحة، وقد لا تثبت على أمر تعزم عليه: كقاضٍ سمع من خصم واحد فحكم له، فلما حضر الخصم الثانى عاد إلى الأول وقضى عليه. ثم نظرت فى الذى أكابده[٤] من احتمال النسك وضيقه؛ فقلت: ما أصغر هذه المشقة فى جانب روح الأبد وراحته. ثم نظرت فيما تشره إليه النفس من لذة الدنيا، فقلت: ما أَمَرَّ هذا وأوجعه، وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله! وكيف لا يستحلى الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة؟ وكيف لا تمر عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة؟ وقلت: لو أن رجلا عرض عليه أن يعيش مائة سنة، لا يأتى عليه يوم واحد إلا بضع منه بِضعة[٥]؛ ثم أعيد عليه من الغد؛ غير أنه يشرط له، أنه إذا استوفى السنين المائة؛ نجا من كل ألم وأذى، وصار إلى الأمن والسرور، كان حقيقا ألا يرى تلك السنين شيئا. وكيف يأبى[٦] الصبر على أيام قلائل يعيشها فى النسك، وأذى تلك الأيام قليل يعقب خيرا كثيرا؟ فلنعلم أن الدنيا كلها بلاء وعذاب. أو ليس الإنسان إنما يتقلب فى عذاب الدنيا من حين يكون جنينا إلى أن يستوفى أيام

---

(١) الحدأة: طائر جارح.

(٢) تعى وتعطب: تعجز وتفسد.

(٣) موت ذعاف: موت سريع.

(٤) أكابده: أعافيه.

(٥) بضع من بضعة: قطع منه قطعة..

(٦) يأبى: يرفض.

حياته؛ فإذا كان طفلا ذاق من العذاب ألوانا: إن جاع فليس به استطعام، أو عطش فليس به استسقاء، أو وجع فليس به استغاثة؛ مع ما يلقى من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح؛ إن أنيم على ظهره لم يستطع تقلبا؛ ثم يلقى أصناف العذاب ما دام رضيعا، فإذا أفلت[١] من عذاب الرضاع، أخذ فى عذاب الأدب، فأذيق منه ألوانا: من عنف المعلم، وضجر الدرس، وسآمة الكتابة؛ ثم له من الدواء والحمية والأسقام[٢] والأوجاع أوفى حظ. فإذا أدرك كانت همته فى جمع المال وتربية الولد ومخاطرة الطلب والسعى والكد والتعب. وهو مع ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنية اللازمة له: وهى الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسم المميت والحية اللاذعة؛ مع الخوف من السباع والهوام؛ مع صرف الحَر والبرد والمطر والرياح؛ ثم أنواع عذاب الهرم لمن يبلغه. فلو لم يخف من هذه الأمور شيئا، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر فيها، لوجب عليه أن يعتبر بالساعة التى يحضره فيها الموت، فيفارق الدنيا؛ ويتذكر ما هو نازل به فى تلك الساعة: من فراق الأحبة والأهل والأقارب وكل مضنون به من الدنيا، والإشراف على الهوْل العظيم بعد الموت. فلو لم يفعل ذلك، لكان حقيقا أن يُعد عاجزا مفرطا محبا للدناءة مستحقا للوم؛ فمن ذا الذى يعلم ولا يحتال لغد جهده فى الحيلة، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها؟ ولا سيما فى هذا الزمان الشبيه بالصافى وهو كدر[٣] فإنه وإن كان الملك حازما عظيم المقدرة، رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلا مرجوا صدوقا شكورا، رحب الذراع مفتقدا مواظبا مستمرا عالما بالناس والأمور، محبا للعلم والخير والأخيار، شديدا على الظلمة، غير جبان ولا خفيف القياد[٤]، وفيقا[٥] بالتوسع على الرعية فيما يحبون، والدفع لما

(١) خلص منه.

(٢) الأسقام: الأمراض.

(٣) كدر: أي به شوائب كثيرة.

(٤) خفيف القياد: لا ينقاد إلى غيره بسهولة.

(٥) وفيقا: صوابًا موافقًا للمراد.

يكرهون؛ فإنَّا قد نرى الزمان مدبرا[١] بكل مكان، فكأن أمور الصدق قد نزعت من الناس، فأصبح ما كان عزيزا فقده مفقودا، وموجودا ما كان ضائرا[٢] وجوده.

وكأن الخير أصبح ذابلا[٣] والشر أصبح ناصرا. وكأن الفهم أصبح قد زالت سبله[٤]. وكأن الحق ولى كسيرا وأقبل الباطل تابعه. وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلا؛ وأصبح المظلوم بالحيف مقرا والظالم لنفسه مستطيلا. وكأن الحرص أصبح فاغرا[٥] فاه من كل جهة يتلقف[٦] ما قرب منه وما بعد. وكأن الرضا أصبح مجهولا. وكأن الأشرار يقصدون السماء صعودا. وكأن الأخيار يريدون بطن الأرض؛ وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف إلى أسفل درك؛ وأصبحت الدناءة مكرمة ممكنة؛ وأصبح السلطان[٧] منتقلا عن أهل الفضل إلى أهل النقص. وكأن الدنيا جذلة[٨] مسرورة تقول: قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات. فلما فكرت فى الدنيا وأمورها؛ وأن الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله؛ ثم هو لا يتقلب إلا فى الشرور والهموم؛ عرفت أنه ليس إنسان ذو عقل يعلم ذلك ثم لا يحتال لنفسه فى النجاة؛ فعجبت من ذلك كل العجب. ثم نظرت فإذا الإنسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه إلا لذة صغيرة حقيرة غير كبيرة من الشم والذوق والنظر والسمع واللمس: فلعله يصيب منها الطفيف أو يقتنى منها اليسير؛ فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها. فالتمست للإنسان مثلا، فإذا مثله مثل

---

(١) مدبرا: زائلًا.

(٢) ضائرا: مضرّا.

(٣) ذابلا: ذهبت نداوته وطراوته.

(٤) سبله: طرقه.

(٥) فاغرا: فاتحا.

(٦) يتلقف: يتناول.

(٧) المراد هنا القدوة.

(٨) جذلة: مبتهجة.

رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر، فتدلى فيها، وتعلق بغصنين كانا على سمائها، فوقعت رجلاه على شيء فى طى البئر[١]. فإذا حيات أربع قد أخرجن رءوسهن من أحجارهن، ثم نظر فإذا فى قاع البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه؛ فرفع بصره إلى الغصنين فإذا فى أصلهما جرذان[٢] أسود وأبيض، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران[٣]، فبينما هو فى النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريبا منه كوارة[٤] فيها عسل نحل؛ فذاق العسل؛ فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة فى شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه؛ ولم يذكر أن رجليه على حيات أربع لا يدرى متى يقع عليهن؛ ولم يذكر أن الجرزين دائبان فى قطع الغصنين؛ ومتى انقطعا وقع على التنين. فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط فى فم التنين فهلك.

فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفاتٍ وشرورا، ومخافات وعاهات؛ وشبهت بالحيات الأربع الأخلاط الأربعة التى فى البدن: فإنها متى هاجت أو أحدها كانت كحمة[٥] الأفاعى والسم المميت؛ وشبهت بالغصنين الأجل الذى لا بد من انقطاعه؛ وشبهت بالجرذين الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان فى إفناء الأجل؛ وشبهت بالتنين المصير الذى لا بد منه؛ وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التى ينال منها الإنسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس، ويتشاغل عن نفسه، ويلهو عن شأنه، ويصد عن سبيل قصده، فحينئذ صار أمرى إلى الرضا بحالى وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملى: لعلى أصادف باقى أيامى زمانا أصيب فيه دليلا على هداى، وسلطانا[٦] على نفسى، وقواما لأمرى، فأقمت على هذه الحال وانتسخت كتبا كثيرة؛ وانصرفت من بلاد الهند، وقد نسخت هذا الكتاب.

---

(١) طى البئر: داخله.

(٢) الجرذ: الفأر..

(٣) يفتران: يضعفان.

(٤) كوارة: خلية.

(٥) حمة الأفاعى: المرض الذي ينتج من سم الأفعى.

(٦) حجة.

الباب الخامس

الأسد والثور

وهو أول الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة:

اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء.

قال بيدبا: إذا ابتلى المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال، لم يلبثا[1] أن يتقاطعا ويتدابرا. ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوند رجل شيخ، وكان له ثلاثة بنين. فلما بلغوا أشدهم أسرفوا فى مال أبيهم؛ ولم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون لأنفسهم بها خيرا. فلامهم أبوهم؛ ووعظهم على سوء فعلهم؛ وكان من قوله لهم:

يا بني إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء:

أما الثلاثة التى يطلب، فالسعة فى الرزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة؛ وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى درك هذه الثلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه، ثم استثماره، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، فيعود عليه نفعه فى الآخرة. فمن ضيع شيئا من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته: لأنه إن لم يكتسب، لم يكن له مال يعيش به؛ وإن هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفنَى ويبقى معدما؛ وإن هو وضعه ولم يستثمره، لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة الذهاب: كالكحل الذى لا يؤخذ منه إلا غبار الميل (المرود) ثم هو مع ذلك سريع فناؤه. وإن أنفقه فى غير وجهه، ووضعه فى غير موضعه، وأخطأ له مواضع استحقاقه، صار بمنزلة الفقير الذى لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل التى تجرى عليه، كمحبس الماء الذى لاتزال المياه تنصبُّ فيه، فإن لم يكن له مخرج ومفيض ومتنفس يخرج الماء منه بقدر ما ينبغى؛ خرب وسال ونز من نواحٍ كثيرة، وربما انبثق البثق

(١) لم يلبثا: لم يتمهلا ويتأخرا.

العظيم[١] فذهب الماء ضياعا. ثم إن بنى الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلموا أن فيه الخير وعولوا عليه[٢]؛ فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها ميون؛ فأتى فى طريقه على مكان فيه وحل كثير؛ وكان معه عجلة يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة، فوحل شتربة فى ذلك المكان، فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا على إخراجه؛ فذهب الرجل وخلف عنده رجلا يشارفه: لعل الوحل ينشف فيتبعه بالثور. فلما بات الرجل بذلك المكان، تبرم[٣] به واستوحش؛ فترك الثور والتحق بصاحبه، فأخبره أن الثور قد مات؛ وقال له: إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد فى التوقى من الأمور التى يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئا، وربما عاد اجتهاده فى توقيه وحذره وبالاً عليه.

كالذى قيل: إن رجلا سلك مفازة[٤] فيها خوف من السباع؛ وكان الرجل خبيرا بوعث[٥] تلك الأرض وخوفها؛ فلما سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها[٦]؛ فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه خاف منه، ونظر يمينا وشمالا ليجد موضعا يتحرز[٧] فيه من الذئب فلم ير إلا قرية خلف واد؛ فذهب مسرعا نحو القرية؛ فلما أتى الوادى لم ير عليه قنطرة، ورأى الذئب قد أدركه، فألقى نفسه فى الماء، وهو لا يحسن السباحة، وكاد يغرق، لولا أن بصر به قوم من أهل القرية؛ فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه، وقد أشرف على الهلاك؛ فلما حصل الرجل عندهم

---

(١) أي: انفجر انفجارًا عظيما.

(٢) عولوا عليه: اعتمدوا واتكلوا.

(٣) تبرم: تأفف وتضجر.

(٤) مفازة: صحراء.

(٥) الوعث: الطريق الخشن الغليظ العسير.

(٦) أضراها: أشدها وأمهرها على الصيد.

(٧) يتحرز: يتحصن.

وأمن على نفسه من غائلة الذئب[١] رأى على عدوة الوادى[٢] بيتا مفردا؛ فقال: أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار، وهم يقتسمون ماله؛ ويريدون قتله؛ فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية؛ فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، إذ سقط الحائط عليه فمات. قال التاجر: صدقت؛ قد بلغنى هذا الحديث. وأما الثور فإنه خلص من مكانه وانبعث؛ فلم يزل فى مرج مخصب[٣] كثير الماء والكلإ[٤]؛ فلما سمن وأمن جعل يخور[٥] ويرفع صوته بالخوار. وكان قريبا منه أجمة[٦] فيها أسد عظيم؛ وهو ملك تلك الناحية، ومعه سباع كثيرة وذئاب وبنات آوى[٧] وثعالب وفهود ونمور؛ وكان هذا الأسد منفردا برأيه دون أخذ برأى أحد من أصحابه. فلما سمع خوار الثور، ولم يكن رأى ثورا قط، ولا سمع خواره؛ لأنه كان مقيما مكانه لا يبرح[٨] ولا ينشط؛ بل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده. وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة؛ وكانا ذوى دهاء وعلم وأدب. فقال دمنة لأخيه كليلة: يا أخى ما شأن الأسد مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشط؟

قال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحب وتاركين ما يكره؛ ولسنا من أهل المرتبة التى يتناول أهلها كلام الملوك والنظر فى أمورهم. فأمسكْ عن هذا، واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من

(١) غائلة الذئب: أذى الذئب.

(٢) عدوة الوادي: شاطئ الوادي وجانبه.

(٣) مرج مخصب: أرض واسعة ذات نبات ومرعى للدواب يكثر فيها العشب.

(٤) الكلأ: العشب رطبه ويابسه.

(٥) يخور: يصيح.

(٦) الأجمة: الشجر الكثير الملتف.

(٧) ابن آوى: حيوان من الفصيلة الكلبية وهو أصغر حجمًا من الذئب«والجمع» بنات آوى.

(٨) لا يبرح: لا يفارق.

شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال كليلة: زعموا أن قردا رأى نجارا يشق خشبة بين وتدين، وهو راكب عليها؛ فأعجبه ذلك. ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه. فقام القرد؛ وتكلف ما ليس من شغله، فركب الخشبة، وجعل ظهره قبل الوتد، ووجهه قبل الخشبة؛ فتدلى ذنبه[١] فى الشق، ونزع الوتد فلزم الشق عليه[٢] فخر مغشيا عليه، ثم إن النجار وافاه[٣] فرآه موضعه، فأقبل عليه يضربه. فكان ما لقى من النجار من الضرب أشد مما أصابه من الخشبة.

قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت، ولكن اعلم أن كل من يدنو[٤] من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت[٥] العدو. وإن من الناس من لا مروءة له؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون؛ كالكلب الذى يصيب عظما يابسا فيفرح به. وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل، ولا يرضون به، دون أن تسموَ به نفوسهم إلى ما هم أهل له، وهو أيضا لهم أهل. كالأسد الذى يفترس الأرنب، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير، ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه[٦]. حتى ترمى له الكسرة، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يُمسح ويتملق له[٧]، فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله وإخوانه فهو وإن قل عمره طويل العمر. ومن كان فى عيشه ضيق وقلة وإمساك على نفسه

(١) ذنبه: ذيله.
(٢) أي: انضم إليه.
(٣) وافاه: أتاه.
(٤) يدنو: يقترب.
(٥) يكبت: يخزى.
(٦) يبصبص ذنبه: يحرك ذيله طمعًا.
(٧) يُتملق له: يتودد ويتضرع فوق ما ينبغى.

وذويه فالمقبور أحيا منه، ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عد من البهائم.

قال كليلة: قد فهمت ما قلت؛ فراجع عقلك، واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدرا. فإن كان فى منزلته التى هو فيها متماسكا، كان حقيقا أن يقنع. وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التى نحن عليها.

قال دمنة: إن المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة؛ ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة. وإن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد، والانحطاط منها هين؛ كالحجر الثقيل: رفعه من الأرض إلى العاتق[1] عسر، ووضعه إلى الأرض هين. فنحن أحق أن نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا. ثم كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحول عنها؟

قال كليلة: فما الذى اجتمع عليه رأيك؟

قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد هذه الفرصة: فإن الأسد ضعيف الرأى. ولعلى على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة ومكانة.

قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التُبس[2] عليه أمره؟

قال دمنة: بالحس والرأى أعلم ذلك منه: فإن الرجل ذا الرأى يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دِله (هيئته) وشكله.

قال كليلة: فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان، ولا لك علم بخدمة السلاطين؟

قال دمنة: الرجل الشديد القوى لا يعجزه الحمل الثقيل، وإن لم تكن عادته

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٢) التبس: اختلط.

الحمل؛ والرجل الضعيف لا يستقل به وإن كان ذلك من صناعته.

قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخى[١] بكرامته فضلاء من بحضرته؛ ولكنه يؤثر الأدنى ومن قرب منه. ويقال: إن مثل السلطان فى ذلك مثل شجر الكرم[٢] الذى لا يعلق إلا بأقرب الشجر. وكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست تدنو منه؟

قال دمنة: قد فهمت كلامك جميعه وما ذكرت، وأنت صادق. لكن اعلم أن الذى هو قريب من السلطان ولا ذلك موضعه ولا تلك منزلته، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حق وحرمة؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدى.

وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأَنَفة[٣] ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السر؛ فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده.

قال كليلة: هبك[٤] وصلت إلى الأسد، فما توفيقك عنده الذى ترجو أن تنال به المنزلة والحظوة لديه[٥]؟

قال دمنة: لو دنوت منه وعرفت أخلاقه، لرفقت فى متابعته وقلة الخلاف له. وإذا أراد أمرا هو فى نفسه صواب، زيَّنته له وصبَّرته عليه، وعرفته بما فيه من النفع والخير؛ وشجعته عليه وعلى الوصول إليه، حتى يزداد به سرورا. وإذا أراد أمرا يخاف عليه ضره وشينه[٦]، بصرته بما فيه من الضر والشين، وأوقفته على ما فى تركه من النفع والزين[٧]، بحسب ما أجد إليه السبيل. وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة

(١) لا يتوخى: لا يعتمد.
(٢) الكَرْم: شجر العنب.
(٣) الأنفة: عزة النفس.
(٤) هبك: افترض أنك.
(٥) الحظوة: علو الشأن.
(٦) شينه: عيبه.
(٧) الزين: الحسن.

ويرى منى ما لا يراه من غيرى: فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقا أو يحق باطلا لفعل: كالمصور الماهر الذى يصور فى الحيطان صورا كأنها خارجة وليست بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة.

قال كليلة: أما إن قلت هذا أو قلت هذا فإنى أخاف عليك من السلطان فإن صحبته خطرة. وقد قالت العلماء: إن أمورا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج[١]، ولا يسلم منهن إلا قليل، وهى: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة. وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة. وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف. فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد. قال دمنة: صدقت فيما ذكرت؛ غير أنه من لم يركب الأهوال، لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذى لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله أن يتوقاه، فليس ببالغ جسيما[٢].

وقد قيل: إن خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة: من علو همة وعظيم خطر: منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة[٣] العدو. وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا يرى إلا فى مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرما، وإما مع النساك متعبدا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين: إما أن تراه وحشيا وإما مُركبا للملوك. قال كليلة: خار الله[٤] لك فيما عزمت عليه.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه. فقال الأسد لبعض جلسائه: من هذا؟

---

(١) أهوج: متسرع أحمق.

(٢) جسيمًا: عظيمًا.

(٣) مناجزة: محاربة.

(٤) خار الله: قدر لك الخير.

فقال: فلان ابن فلان.

قال: قد كنت أعرف أباه. ثم سأله أين تكون؟

قال: لم أزل ملازما باب الملك، رجاء أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسى ورأيى: فإن أبواب الملوك تكثر فيها الأمور التى ربما يحتاج فيها إلى الذى لا يؤبه[١] له؛ وليس أحد يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناء والمنافع على قدره؛ حتى العود الملقى فى الأرض ربما نفع، فيأخذه الرجل فيكون عدته عند الحاجة إليه. فلما سمع الأسد قول دمنة أعجبه، وظن أن عنده نصيحة ورأيا. فأقبل على من حضر فقال:

إن الرجل ذا العلم والمروءة يكون خامل الذكر[٢] خافض المنزلة، فتأبى منزلته إلا أن تشب وترتفع؛ كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا. فلما عرف دمنة أن الأسد قد عجب منه قال: إن رعية الملك تحضر باب الملك، رجاء أن يعرف ما عندها من علم وافر. وقد يقال: إن الفضل فى أمرين: فضل المقاتل على المقاتل والعالم على العالم. وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرة على العمل: فإن العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحي الأعوان. ومثل ذلك مثل الرجل الذى يحمل الحجر الثقيل، فيثقل به نفسه، ولا يجد له ثمنا. والرجل الذى يحتاج إلى الجذوع[٣] لا يجزئه[٤] القضب[٥] وإن كثر. فأنت الآن أيها الملك حقيق ألا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة: فإن الصغير ربما عظم، كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا عمل منه القوس أُكرم، فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه فى البأس[٦] واللهو.

---

(١) .لا يؤبه: لا يُهتم.

(٢) خامل الذكر: لا يُعرف ولا يُذكر.

(٣) الجذع: الساق.

(٤) .لا يجزئه: لا يكفيه.

(٥) القضب: الشجر الرطب يقطع مرة بعد أخرى.

(٦) البأس: الحرب الشديدة.

وأحب دمنة أن يرى القوم أن ما ناله من كرامة الملك إنما هو لرأيه ومروءته وعقله: لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه، فقال:

إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم، ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينبغى أن ينظر إلى كل رجل بما عنده: لأنه لا شىء أقرب إلى الرجل من جسده ومن جسده ما يدوى[١] حتى يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلا بالدواء الذى يأتيه من بعد.

فلما فرغ دمنه من مقالته هذه أعجب الملك به إعجابا شديدا، وأحسن الرد عليه، وزاد فى كرامته. ثم قال لجلسائه:

ينبغى للسلطان ألا يلج[٢] فى تضييع حق ذوى الحقوق. والناس فى ذلك رجلان: رجل طبعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرا أن يغره ذلك منها، فيعود إلى وطئها ثانيا فتلدغه؛ ورجل أصل طباعه السهولة، فهو كالصندل[٣] البارد (نوع من الخشب) الذى إذا أفرط فى حكه صار حارا مؤذيا.

ثم إن دمنة استأنس بالأسد وخلا به. فقال له يوما:

أرى الملك قد أقام فى مكان لا يبرح منه؛ فما سبب ذلك؟ فبينما هما فى هذا الحديث إذ خار شتربة خوارا شديدا: فهيج الأسد وكره أن يخبر دمنة بما ناله؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة وهيبة. فسأله: هل راب[٤] الملك سماع هذا الصوت؟ قال: لم يربنى شىء سوى ذلك.

قال دمنة: ليس الملك بحقيق أن يدع مكانه لأجل صوت.

فقد قالت العلماء: إنه ليس من كل الأصوات تجب الهيبة. قال الأسد: وما مثل ذلك؟

---

(١) يدوى: يكثر آفاته وأمراضه.

(٢) يلج: يدخل.

(٣) الصندل: سبق ذكره فيما تقدم.

(٤) راب: خاف.

قال دمنة: زعموا أن ثعلبا أتى أجمة[١] فيها طبل معلق على شجرة، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها، فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم؛ فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظم صوته؛ فلما أتاه وجده ضخما، فأيقن فى نفسه بكثرة الشحم واللحم. فعالجه حتى شقه. فلما رآه أجوف[٢] لا شىء فيه، قال:

لا أدرى لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذى راعنا، لو وصلنا إليه، لوجدناه أيسر مما فى أنفسنا. فإن شاء الملك بعثنى وأقام بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت. فوافق الأسد قوله، فأذن له بالذهاب نحو الصوت.

فانطلق دمنة إلى المكان الذى فيه شتربة. فلما فصل[٣] دمنة من عند الأسد، فكر الأسد فى أمره، وندم على إرسال دمنة حيث أرسله وقال فى نفسه: ما أصبت فى ائتمانى دمنة، وقد كان ببابى مطروحا[٤]، فإن الرجل إذا كان يحضر باب الملك، وقد أبطلت حقوقه[٥] من غير جرم كان منه، أو كان مبغيا عليه[٦] عند سلطانه؛ أو كان عنده معروفا بالشره والحرص، أو كان قد أصابه ضر وضيق فلم ينعشه[٧]، أو كان قد اجترم جرما فهو يخاف العقوبة منه، أو كان يرجو شيئا يضر الملك وله منه نفع؛ أو يخاف فى شىء مما ينفعه ضرا، أو كان لعدو الملك مسالما، ولمسالمه محاربا، فليس السلطان بحقيق أن يعجل بالاسترسال إليه، والثقة به، والائتمان له: فإن دمنة داهية أريب. وقد كان ببابى

(١) الشجر الكثيف المتلف على بعضه.
(٢) أجوف: فارغ من داخله.
(٣) فصل: خرج.
(٤) أي: كان ببابى مقطوعًا ومنبسطًا.
(٥) أي: أسقطت حقوقه وضيعتها.
(٦) مبغيا عليه: واقع عليه ظلم.
(٧) فلم ينعشه: فلم ينهضه من ضيقه.

مطروحا مجفّوا. ولعله قد احتمل على بذلك ضغنا، ولعل ذلك يحمله على خيانتى وإعانة عدوى ونقيصتى عنده؛ ولعله صادف صاحب الصوت أقوى سلطانا منى فيرغب به عنى ويميل معه على. ثم قام من مكانه فمشى غير بعيد، فبصر بدمنة مقبلا نحوه فطابت نفسه بذلك، ورجع إلى مكانه؛ ودخل دمنة على الأسد فقال له: ماذا صنعت؟ وماذا رأيت؟

قال: رأيت ثورا هو صاحب الخوار والصوت الذى سمعته.

قال: فما قوته؟

قال: لا شوكة له. وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء[1] فلم يستطع لى شيئا. قال الأسد: لا يغرنك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره: فإن الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر.

قال دمنة: لا تهابن أيها الملك منه شيئا؛ ولا يكبرن عليك أمره: فأنا آتيك به ليكون لك عبدا سامعا مطيعا.

قال الأسد: دونَك وما بدا لك.

فانطلق دمنة إلى الثور، فقال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد أرسلنى إليك لآتيه بك. وأمرنى؛ إن أنت عجلت إليه طائعا، أن أؤمنك على ما سلف[2] من ذنبك فى التأخر عنه وتركك لقاءه؛ وإن أنت تأخرت عنه وأحجمت[3]، أن أعجل الرجعة إليه فأخبره. قال له شترية: ومن هو هذا الأسد الذى أرسلك إلى؟ وأين هو؟ وما حاله؟

قال دمنة: هو ملك السباع، وهو بمكان كذا، ومعه جند كثير من جنسه فرعب شترية من ذكر الأسد والسباع. وقال:

(١) الأكفاء: الأشباه والنظراء.

(٢) ما سلف: ما مضى وفات.

(٣) أحجم: كفَّ ونكص.

إن أنت جعلت لى الأمان على نفسى أقبلت معك إليه. فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به. ثم أقبل والثور معه، حتى دخلا على الأسد فأحسن الأسد إلى الثور وقربه؛ وقال له: متى قدمت هذه البلاد؟ وما أقدمكها[1]؟ فقص شتربة عليه قصته. فقال له الأسد اصحبنى والزمنى: فإنى مكرمك. فدعا له الثور وأثنى عليه.

ثم إن الأسد قرب شتربة وأكرمه وأنس به وأتمنه على أسراره وشاوره فى أمره، ولم تزده الأيام إلا عجبا به ورغبة فيه وتقريبا منه؛ حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة. فلما رأى دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه؛ وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه، حسده حسدا عظيما، وبلغ منه غيظه كل مبلغ: فشكا ذلك إلى أخيه كليلة؛ وقال له: ألا تعجب يا أخى من عجز رأيى، وصنعى بنفسى؟ ونظرى فيما ينفع الأسد، وأغفلت نفع نفسى حتى جلبت إلى الأسد ثورا غلبنى على منزلتى.

قال كليلة: أخبرنى عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه في ذلك.

قال دمنة: أما أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتى عند الأسد فوق ما كانت عليه؛ ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت عليه: فإن أمورا ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجُهده: منها النظر فيما مضى من الضر والنفع، فيحترس من الضر الذى أصابه فيما سلف لئلا يعود إلى ذلك الضر، ويلتمس النفع الذى مضى ويحتال لمعاودته؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار، والاستيثاق بما ينفع والهرب مما يضر؛ ومنها النظر فى مستقبل ما يرجو من قِبل النفع، وما يخاف من قبل الضر، فيستتم ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهده. وإنى لما نظرت فى الأمر الذى به أرجو أن تعود منزلتى، وما غلبت عليه مما كنت فيه، لم أجد حيلة ولا وجها إلا الاحتيال لآكل العشب هذا، حتى أفرق بينه وبين الحياة: فإنه إن فارق الأسد عادت لى منزلتى. ولعل ذلك يكون خيرا للأسد: فإن إفراطه فى تقريب الثور خليق أن يشينه ويضره فى أمره.

(١) أي ما الذي جعلك تأتيها.

قال كليلة: ما أرى على الأسد فى رأيه فى الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شيئا ولا شرا. قال دمنة: إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء:

الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة[١] والزمان والخرق.

فأما الحرمان فأن يحرم صالح الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأى والنجدة والأمانة، وترك التفقد لمن هو كذلك. وأما الفتنة فهى تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم. وأما الهوى فالغرام بالحديث واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك. وأما الفظاظة فهى إفراط الشدة حتى يجمح اللسان بالشتم واليد بالبطش فى غير موضعهما.

وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين القحط والموت ونقص الثمرات والغزوات وأشباه ذلك. وأما الخرق فإعمال الشدة فى موضع اللين، واللين فى موضع الشدة. وإن الأسد قد أغرم بالثور[٢] إغراما شديدا هو الذى ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضره فى أمره.

قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم على الأسد منك وأكثر أعوانا؟ قال دمنة: لا تنظر إلى صغرى وضعفى: فإن الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر فى الجثة: فرب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أو لم يبلغك أن غرابا ضعيفا احتال لأسود[٣] حتى قتله؟

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن غرابا كان له وكر[٤] فى شجرة على جبل؛ وكان قريبا منه جُحر ثعبان أسود، فكان الغراب إذا فرخ عمد الأسود إلى

---

(١) الفظاظة: القساوة.

(٢) أي: أولع به وتعلق به.

(٣) الأسود: الأفعى.

(٤) وكر: عش.

فراخه فأكلها؛ فبلغ ذلك من الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى؛ وقال له: أريد مشاورتك فى أمر قد عزمت عليه؛ قال: وما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام، فأنقر عينيه، فأفقأهما[١]، لعلى أستريح منه.

قال ابن آوى: بئس الحيلة التى احتلت؛ فالتمس أمرا تصيب فيه بغيتك من الأسود، من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها. وإياك أن يكون مثلك مثل العلجوم[٢] الذى أراد قتل السرطان[٣] فقتل نفسه. قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

قال ابن آوى: زعموا أن علجوما عشش فى أجمة كثيرة السمك؛ فعاش بها ما عاش؛ ثم هرم[٤] فلم يستطع صيدا؛ فأصابه جوع وجهد شديد؛ فجلس حزينا يلتمس الحيلة فى أمره؛ فمر به سرطان، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن؛ فدنا منه وقال: مالى أراك أيها الطائر هكذا حزينا كئيبا؟ قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما ها هنا من السمك؟ وإنى قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان؛ فقال أحدهما لصاحبه: إن هاهنا سمكا كثيرا أفلا نصيده أولا؟ فقال الآخر: إنى قد رأيت فى مكان كذا سمكا أكثر من هذا السمك؛ فلنبدأ بذلك، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه.

وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكى ونفاد مدتى. فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك؛ فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه؛ وقلن له: إنا أتيناك لتشير علينا: فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه. قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى

(١) أي: أنقر عينيه حتى يعمى.
(٢) العلجوم: نوع من الطيور.
(٣) السرطان: حيوان بحرى من القشريات، العشريات الأرجل.
(٤) هرم: كبر سنه وضعف.

بها؛ ولا أعلم حيلة إلا المصير إلى غدير[١] قريب من هاهنا، فيه سمك ومياه عظيمة وقصب[٢]؛ فإن استطعتن الانتقال إليه، كان فيه صلاحكن وخصبكن. فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك. فجعل العلجوم يحمل فى كل يوم سمكتين حتى ينتهى بهما إلى بعض التلال فيأكلهما؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين؛ فجاءه السرطان؛ فقال له: إنى أيضا قد أشفقت من مكانى هذا واستوحشت منه فاذهب بى إلى ذلك الغدير؛ فاحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛ وأنه يريد به مثل ذلك. فقال فى نفسه: إذا لقى الرجل عدوه فى المواطن التى يعلم أنه فيها هالك، سواء قاتل أم لم يقاتل؛ كان حقيقا أن يقاتل عن نفسه كرما وحفاظا، ثم أهوى بكلبتيه[٣] على عنق العلجوم، فعصره فمات؛ وتخلص[٤] السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيلة مهلكة للمحتال ولكنى أدلك على أمر، إن أنت قدرت عليه، كان فيه هلاك الأسْود من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتك.

قال الغراب: وما ذاك؟

قال ابن آوى: تنطلق فتبصر فى طيرانك: لعلك أن تظفر بشىء من حلى النساء فتخطفه؛ ولا تزال طائرا واقعا، بحيث لا تفوت العيون[٥]، حتى تأتى جحر الأسود فترمى بالحلى عنده. فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود. فانطلق الغراب محلقا فى السماء؛ فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل؛

(١) غدير: قطعة من الماء.

(٢) قصب: نبات مائى من الفصيلة النجيلية.

(٣) كلبتيه: هما قدماه أو قرناه يمسك بهما فريسته ويضمهما عليه مثل (الكلابة – الكماشة).

(٤) أي: وصل.

(٥) أي تغيب عنها.

وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية؛ فانقض واختطف من حليها عقدا، وطار به، فتبعه الناس؛ ولم يزل طائرا واقعا، بحيث يراه كل أحد؛ حتى انتهى إلى جحر الأسود؛ فألقى العقد عليه، والناس ينظرون إليه. فلما أتوه أخذوا العقد وقتلوا الأسْود. قال دمنة لكليلة: وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ مالا تجزئ القوة. قال كليلة: إن الثور لو لم يجتمع مع شدته رأياً لكان كما تقول. ولكن له مع شدته وقوته حسن الرأى والعقل. فماذا تستطيع له؟

قال دمنة: إن الثور لكما ذكرت فى قوته ورأيه، ولكنه مقر لى بالفضل؛ وأنا خليق أن أصرعه كما صرعت الأرنبُ الأسد.

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن أسدا كان فى أرض كثيرة المياه والعشب؛ وكان فى تلك الأرض من الوحوش فى سعة المياه والمرعى شىء كثير؛ إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد؛ فاجتمعت وأتت إلى الأسد، فقالت له: إنك لتصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب؛ وقد رأينا لك رأيا فيه صلاح لك وأمن لنا. فإن أنت أمنتنا ولم تخفنا، فلك علينا فى كل يوم دابة نرسل بها إليك فى وقت غدائك: فرضى الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفين له به. ثم إن أرنبا أصابتها القرعة[1]، وصارت غداء الأسد؛ فقالت للوحوش: إن أنتن رفقتن بى فيما لا يضركن؛ رجوت أن أريحكن من الأسد. فقالت الوحوش: وما الذى تكلفيننا من الأمور؟ قالت: تأمرن الذى ينطلق بى إلى الأسد أن يمهلنى ريثما[2] أبطئ عليه بعض الإبطاء. فقلن لها ذلك لك. فانطلقت الأرنب متباطئة؛ حتى جاوزت الوقت الذى كان يتغدى فيه الأسد. ثم

(١) أى: جاءت من نصيبها.

(٢) ريثما: مقدار.

تقدمت إليه وحدها رويدا[1]، وقد جاع؛ فغضب وقام من مكانه نحوها؛ فقال لها: من أين أقبلت؟ قال: أنا رسول الوحوش إليك: بعثنني ومعى أرنب لك، فتبعنى أسد فى بعض تلك الطريق، فأخذها منى، وقال: أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش. فقلت: إن هذا غداء الملك أرسلنى به الوحوش إليه. فلا تغصبنه، فسبَّك وشتمك. فأقبلت مسرعة لأخبرك. فقال الأسد: انطلقى معى فأرينى موضع هذا الأسد. فانطلقت الأرنب إلى جب[2] فيه ماء غامر صاف؛ فاطَّلعت فيه، وقالت: هذا المكان. فاطلع الأسد، فرأى ظله وظل الأرنب فى الماء؛ فلم يشك فى قولها؛ ووثب إليه ليقاتله، فغرق فى الجب، فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد.

قال كليلة: إن قدرت على هلاك الثور بشىء ليس فيه مضرة للأسد فشأنك: فإن الثور قد أضر بى وبك وبغيرنا من الجند؛ وإن أنت لم تقدر على ذلك إلا بهلاك الأسد، فلا تقدم عليه، فإنه غدر منى ومنك. ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أياما كثيرة؛ ثم أتاه على خلوة منه؛ فقال له الأسد: ما حبسك عنى؟ منذ زمان لم أرك. ألا لخير كان انقطاعك؟ قال دمنة: فليكن خيرا أيها الملك.

قال الأسد: وهل حدث أمر؟

قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده. قال: وما ذاك؟ قال: كلام فظيع.

قال: أخبرنى به.

قال دمنة: إنه كلام يكرهه سامعه، ولا يشجع عليه قائله. وإنك أيها الملك لذو فضيلة، ورأيك يدلك على أن يوجعنى أن أقول ما تكره؛ وأثق بك أن تعرف نصحى وإيثارى إياك على نفسى. وإنه ليعرض لى أنك غير مصدقى فيما أخبرك به؛ ولكنى إذا

(١) رويدًا: مهلًا.

(٢) جب: بئر.

تذكرت وتفكرت أن نفوسنا معاشر الوحوش متعلقة بك لم أجد بدا[١] من أداء الحق الذى يلزمنى وإن أنت لم تسألنى وخفت ألا تقبل منى فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحته والإخوان رأيه فقد خان نفسه.

قال الأسد: فما ذاك؟

قال دمنة: حدثنى الأمين الصدوق عندى أن شتربة خلا برءوس جندك، وقال: قد خبرت الأسد وبلوت رأيه[٢] ومكيدته وقوته: فاستبان لى أن ذلك يؤول[٣] منه إلى ضعف وعجز ، وسيكون لى وله شأن من الشؤون. فلما بلغنى ذلك علمت أن شتربة خوان[٤] غدار؛ وأنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظير نفسك، وهو يظن أنه مثلك. وأنك متى زلت عن مكانك صار له ملكك؛ ولا يدع جهدا إلا بلغه فيك. وقد كان يقال: إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه فى المنزلة والحال، فليصرعه[٥]؛ فإن لم يفعل به ذلك، كان هو المصروع. وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها؛ والعاقل هو الذى يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه: فإنك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه[٦]. فإنه يقال: الرجال ثلاثة: حازم وأحزم منه وعاجز؛ فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شعاعا[٧]، ولم تعى به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرَج منه؛ وأحزم من هذا المتقدم ذو العدة الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه؛ فيعظمه إعظاما، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه: فيحسم[٨] الداء قبل أن يبتلى به؛ ويدفع

(١) بدًا: مفرا.
(٢) بلوت رأيه: اختبرت رأيه.
(٣) يؤول: يعود.
(٤) الخوان: المبالغ في الخيانة بالإصرار عليها.
(٥) يصرعه: يقتله.
(٦) استدركه: تداركه.
(٧) شعاعًا: انتشارًا وتفرقًا.
(٨) يحسم: يبت ويقطع.

الأمر قبل وقوعه. وأما العاجز فهو فى تردد وتمن وتوانٍ[١] حتى يهلك. ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن غديرا كان فيه ثلاث سمكات: كيِّسة[٢] وأكيس منها وعاجزة؛ وكان ذلك الغدير بنجوة[٣] من الأرض لا يكاد يقربه أحد؛ وبقربه نهر جار. فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان؛ فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك. فسمع السمكات قولهما: فأما أكيسهن لما سمعت قولهما، وارتابت بهما، وتخوفت منهما؛ فلم تعرج[٤] على شىء حتى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير. وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان؛ فلما رأتهما، وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط؛ فكيف الحيلة على هذه الحال؟ وقلما تنجع[٥] حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأى، ولا ييئس على حال، ولا يدع الرأى والجهد. ثم إنها تماوتت[٦] فطفت[٧] على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة، وتارة على بطنها؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير؛ فوثبت إلى النهر فنجت. وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صِيدت.

قال الأسد: قد فهمت ذلك؛ ولا أظن الثور يغشني ويرجو ليَ الغوائل[٨]. وكيف

---

(١) توان: تمهل.

(٢) كيسة: فطنة، وهي ضد الحمق.

(٣) نجوة: المرتفع من الأرض.

(٤) تعرج: تقف.

(٥) تنجع: تنجح.

(٦) أي: ادعت أنها ميتة.

(٧) طفت: علت.

(٨) الغوائل: المصائب والدواهى.

يفعل ذلك ولم ير منى سوءا قط؟ ولم أدع خيرا إلا فعلته معه؟ ولا أمنية إلا بلغته إياها؟قال دمنة: إن اللئيم لا يزال نافعا ناصحا حتى يُرفع إلى المنزلة التى ليس لها بأهل؛ فإذا بلغها التمس ما فوقها، ولاسيما أهل الخيانة والفجور: فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرق[١]. فإذا استغنى وذهبت الهيبة عاد إلى جوهره؛ كذنب الكلب الذى يربط ليستقيم فلا يزال مستويا ما دام مربوطا؛ فإذا حل انحنى واعوجَّ كما كان، واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينصحون له به، لم يحمد رأيه، كالمريض الذى يدع ما يبعث له الطبيب؛ ويعمد إلى ما يشتهيه. وحق على موازر السلطان أن يبالغ فى التحضيض[٢] له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه؛ والكف عما يضره ويشينه؛ وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة[٣] فى النصيحة؛ وخير الأعمال أحلاها عاقبة؛ وخير النساء الموافقة لبعلها[٤]؛ وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطر[٥]؛ وخير الأخلاق أعونها على الورع[٦]. وقد قيل: لو أن امرءًا توسد[٧] النار وافترش الحيات، كان أحق ألا يهنئه النوم. والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها؛ لا يطمئن إليه؛ وأعجز الملوك آخذهم بالهوينَى[٨]، وأقلهم نظرا فى مستقبل الأمور، وأشبههم بالفيل الهائج الذى لا يلتفت إلى شىء: فإن حزبه أمر تهاون به، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه.

قال له الأسد: لقد أغلظت فى القول؛ وقول الناصح مقبول محمول. وإن كان

---

(١) فرق: خوف.

(٢) التحضيض: الترغيب له.

(٣) مداهنة: نفاقًا.

(٤) بعلها: زوجها.

(٥) بطر: إنكار الحق والاستخفاف بالنعمة.

(٦) الورع: التقوى.

(٧) توسد النار: جعلها تحت رأسه.

(٨) الهوينا: التوانى.

شتربة معاديا لى، كما تقول، فإنه لا يستطيع لى ضرا؛ وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وإنما هو لى طعام، وليس على منه مخافة. ثم ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الذى جعلته له، وبعد إكرامى له، وثنائى عليه. وإن غيرت ما كان منى وبدلته، سفهت رأيى[1] وجهلت نفسى وغدرت بذمتى.

قال دمنة: لا يغرنك قولك: هو لى طعام وليس عليَّ منه مخافة: فإن شتربة إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره. ويقال: إن استضافك ضيف ساعة من نهار، وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهرا فكانت تصيب من دمه وهو نائم لا يشعر، وتدب دبيبا رفيقا؛ فمكثت كذلك حينا حتى استضافها ليلة من الليالى برغوث؛ فقالت له: بت الليلة عندنا فى دم طيب وفراش لين؛ فأقام البرغوث عندها حتى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغة أيقظته؛ وأطارت النوم عنه؛ فقام الرجل وأمر أن يفتش فراشه؛ فنظر فلم ير إلا القملة؛ فأخذت فقصعت[2] وفر البرغوث.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب الشر لا يسلم من شره أحد؛ وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشر بسببه. وإن كنت لا تخاف من شتربة، فخف غيره من جندك الذين قد حملهم عليك وعلى عداوتك. فوقع فى نفس الأسد كلام دمنة.

فقال: فما الذى ترى إذا؟ وبماذا تشير؟

قال دمنة: إن الضرس لايزال متأكلا، ولا يزال صاحبه منه فى ألم وأذى حتى

(١) سفهت رأيي: حقرت رأيي.

(٢) قصعت: قتلت.

يفارقه. والطعام الذى قد عفن فى البطن، الراحة فى قذفه. والعدو المخوف، دواؤه قتله.

قال الأسد: لقد تركتنى أكره مجاورة شتربة إياى؛ وأنا مرسل إليه، وذاكر له ما وقع فى نفسى منه؛ ثم آمره باللحاق حيث أحب. فكره دمنة ذلك، وعلم أن الأسد متى كلم شتربة فى ذلك وسمع منه جوابا عرف باطل ما أتَى به، واطلع على غدره وكذبه؛ ولم يخف عليه أمره.

فقال للأسد: أما إرسالك إلى شتربة فلا أراه لك رأيا ولا حزما؛ فلينظر الملك فى ذلك: فإن شتربة متى شعر بهذا الأمر، خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة. وهو إن قاتلك قاتلك مستعدا؛ وإن فارقك، فارقك فراقا يليك[1] منه النقص، ويلزمك منه العار. مع أن ذوى الرأى من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة: فلذنب العلانية عقوبة العلانية، ولذنب السر عقوبة السر.

قال الأسد: إن الملك إذا عاقب أحدا عن ظنة ظنها من غير تيقن بجرمه، فنفسه عاقب وإياها ظلم.

قال دمنة: أما إذا كان هذا رأى الملك، فلا يدخلن عليك شتربة إلا وأنت مستعد له؛ وإياك أن تصيبك منه غرة[2] أو غفلة: فإنى لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعرف أنه قد هم بعظيمة. ومن علامات ذلك أنك ترى لونه متغيرا. وترى أوصاله ترعد؛ وتراه ملتفتا يمينا وشمالا؛ وتراه يهز قرنيه فعل الذى هم بالنطاح والقتال.

قال الأسد: سأكون منه على حذر؛ وإن رأيت منه ما يدل على ما ذكرت علمت أن ما فى أمره شك.

فلما فرغ دمنة من حمل الأسد على الثور، وعرف أنه قد وقع فى نفسه ما كان يلتمس، وأن الأسد سيتحذر الثور، ويتهيأ له، أراد أن يأتى الثور ليغريه بالأسد؛

(١) يليك: يلحقك.

(٢) غرة: فجأة.

وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به.

فقال: أيها الملك ألا آتى شترية فأنظر إلى حاله وأمره؛ وأسمع كلامه: لعلى أطلع على سره، فأطلع الملك على ذلك، وعلى ما يظهر لى منه؟ فأذن له الأسد فى ذلك. فانطلق فدخل على شترية كالكئيب الحزين. فلما رآه الثور رحب به، وقال:

ما كان سبب انقطاعك عنى؟ فإنى لم أركَ منذ أيام؛ ولعلك فى سلامة!

قال دمنة: ومتى كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه، وأمره بيد غيره ممن لا يوثق به، ولا ينفك على خطر وخوف. حتى ما من ساعة تمر ويأمن فيها على نفسه.

قال شترية: وما الذى حدث؟

قال دمنة: حدث ما قُدر وهو كائن. ومن ذا الذى غالب القدر؟ ومن ذا الذى بلغ من الدنيا جسيما[1] من الأمور فلم يبطر؟ ومن ذا الذى بلغ مناه[2] فلم يغتر؟ ومن ذا الذى تبع هواه فلم يخسر؟ ومن ذا الذى طلب من اللئام فلم يُحرم؟ ومن ذا الذى خالط الأشرار فسلم؟ ومن ذا الذى صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟

قال شترية: إنى أسمع منك كلاما يدل على أنه قد رابك من الأسد ريب، وهالك[3] منه أمر.

قال دمنة: أجل ، لقد رابنى منه ذلك، وليس هو فى أمر نفسى.

قال شترية: ففى نفس من رابك؟

قال دمنة: قد تعلم ما بينى وبينك، وتعلم حقك علىَّ، وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيام أرسلنى الأسد إليك، فلم أجد بدا من حفظك وإطلاعك على ما اطلعت عليه مما أخاف عليك منه.

---

(١) جسيمًا: مكانة عالية.

(٢) مناه: أمانيه.

(٣) أي: أصابك هول وفزع.

قال شتربة: وما الذى بلغك؟

قال دمنة: حدثنى الخبير الصدوق الذى لا مرية[١] فى قوله أن الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه: قد أعجبنى سمن الثور؛ وليس لى إلى حياته حاجة؛ فأنا آكله ومطعم أصحابى من لحمه. فلما بلغنى هذا القول، وعرفت غدره ونقض عهده؛ أقبلت إليك لأقضى حقك؛ وتحتال أنت لأمرك. فلما سمع شتربة كلام دمنة، وتذكر ما كان دمنة جعل له من العهد والميثاق، وفكر فى أمر الأسد، ظن أن دمنة قد صدقه ونصح له؛ ورأى أن الأمر شبيه بما قال دمنة. فأهمه ذلك؛ وقال:

ما كان للأسد أن يغدر بى ولم آت إليه ذنبا، ولا إلى أحد من جنده، منذ صحبته؛ ولا أظن الأسد إلا قد حمل على بالكذب وشبه[٢] عليه أمرى: فإن الأسد قد صحبه قوم سوء؛ وجرب منهم الكذب وأمورا هى تصدق عنده ما بلغه من غيرهم: فإن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوءَ ظن بالأخيار؛ وحملته تجربته على الخطأ كخطأ البطة التى زعموا أنها رأت فى الماء ضوء كوكب، فظنته سمكة، فحاولت أن تصيدها، فلما جربت ذلك مرارا، علمت أنه ليس بشىء يصاد فتركته. ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة، فظنت أنها مثل الذى رأته بالأمس، فتركتها ولم تطلب صيدها. فإن كان الأسد بلغه عنى كذبٌ فصدقه عليَّ وسمعه فى، فما جرى على غيرى يجرى على. وإن كان لم يبلغه شىء، وأراد السوء بى من غير علة[٣]؛ فإن ذلك لمن أعجب الأمور. وقد كان يقال: إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط. فإذا كانت الموجدة[٤] عن علة، كان الرضا موجودا والعفو مأمولا. وإذا كانت عن غير علة، انقطع الرجاء: لأن العلة إذا

(١) لا مرية: لا شك ولا جدال.

(٢) شبه: التبس.

(٣) علة: سبب.

(٤) أي: الغضب.

كانت الموجدة فى ورودها[1]، كان الرضا مأمولا فى صدورها.

وقد نظرت: فلا أعلم بينى وبين الأسد جرما، ولا صغير ذنب، ولا كبيره. ولعمرى ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس فى كل شىء من أمره، ولا أن يتحفظ[2] من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه. ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها، وعرف قدر مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ. ثم ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشىء يجد فيه إلى الصفح عنه سبيلا. فإن كان الأسد قد اعتقد علىَّ ذنبا؛ فلست أعلمه؛ إلا أنى خالفته فى بعض رأيه نصيحة له؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمرى على الجراءة عليه والمخالفة له؛ ولا أجد لى فى هذا المحضر إثما ما: لأنى لم أخالفه فى شىء إلا ما قد ندر من مخالفة الرشد والمنفعة والدين؛ ولم أجاهر بشىء من ذلك على رءوس جنده وعند أصحابه؛ ولكنى كنت أخلو به وأكلمه سرا كلام الهائب الموقر[3].

وعلمت أنه من التمس الرخص من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، أخطأ منافع الرأى؛ وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطا[4]، وحمل الوزر. وإن لم يكن هذا، فعسى أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان: فإن مصاحبة السلطان خطرة، وإن صوحب بالسلامة والثقة والمودة وحسن الصحبة. وإن لم يكن هذا، فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لى فيه الهلاك. وإن لم يكن هذا ولا هذا، فهو إذا من مواقع القضاء والقدر الذى لا يدفع؛ والقدر هو الذى يسلب الأسد قوته وشدته؛ ويدخله القبر؛ وهو الذى يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج؛ وهو الذى يسلط على الحية ذات الحمة من ينزع

(١) ورودها: حضورها.

(٢) يتحفظ: يتوقى.

(٣) أي: المعظم المبجل.

(٤) ارتباكا.

حمتها ويلعب بها؛ وهو الذى يجعل العاجز حازما، ويثبط[١] الشهم، ويوسع على المقتر[٢]، ويشجع الجبان، ويجبن الشجاع عند ما تعتريه المقادير[٣] من العلل التى وضعت عليها الأقدار.

قال دمنة: إن إرادة الأسد بك ليست من تحميل الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك، ولكنها الغدر والفجور منه: فإنه فاجر خوان غدار: لطعامه حلاوة وآخره سم مميت.

قال شترية: فأرانى قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها: وقد انتهيت إلى آخرها الذى هو الموت؛ ولولا الحين[٤] ما كان مقامى عند الأسد، وهو آكل لحم وأنا آكل عشب فأنا فى هذه الورطة كالنحلة التى تجلس على نور النيلوفر[٥] إذ تستلذ ريحه وطعمه، فتحبسها تلك اللذة؛ فإذا جاء الليل ينضم عليها، فترتبك فيه وتموت. ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف[٦] الذى يغنيه وطمحت[٧] عينه إلى ما سوى ذلك، ولم يتخوف عاقبتها، كان كالذباب الذى لا يرضى بالشجرة والرياحين، ولا يقنعه ذلك، حتى يطلب الماء الذى يسيل من أذن الفيل، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه. ومن يبذل وده ونصيحته لمن لا يشكره، فهو كمن يبذر فى السباخ[٨]. ومن يشر على المعجب[٩]

---

(١) يثبط: يعوق.

(٢) المقتر: الفقير المضيق عليه رزقه.

(٣) تعتريه المقادير: تصيبه الأقدار.

(٤) الحين: المحنة.

(٥) النيلوفر: جنس نباتات مائية فيها أنواع تنبت في الأنهار والمناقع وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها.

(٦) الكفاف: القليل.

(٧) طمحت: علت.

(٨) السِّباخ: الأرض التي لم تحرث ولم تعمر.

(٩) المعجب: المتكبر المزهو المترفع.

(المتكبر)، فهو كمن يشاور الميت أو يسارُّ الأصم[1].

قال دمنة: دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك.

قال شتربة: بأى شىء أحتال لنفسى، إذا أراد الأسد أكلى، مع ما عرفتنى من رأى الأسد وسوء أخلاقه؟ واعلم أنه لو لم يرد بى إلا خيرا، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكى لقدروا على ذلك فإنه إذا اجتمع المكرة الظلمة على البرىء الصحيح، كانوا خلقاء (جديرين) أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وهو قوى؛ كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال شتربة: زعموا أن أسدا كان فى أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس؛ وكان له أصحاب ثلاثة: ذئب وغراب وابن آوى؛ وأن رعاة مروا بذلك الطريق، ومعهم جمال، فتخلف منها جمل، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد؛ فقال له الأسد:

من أين أقبلت؟

قال: من موضع كذا.

قال: فما حاجتك؟

قال: ما يأمرنى به الملك.

قال: تقيم عندنا فى السعة والأمن والخصب. فأقام الأسد والجمل معه زمنا طويلا. ثم إن الأسد مضى فى بعض الأيام لطلب الصيد، فلقى فيلا عظيما، فقاتله قتالا شديدا؛ وأفلت منه مثقلا مثخنا بالجراح، يسيل منه الدم، وقد خدشه الفيل بأنيابه. فلما وصل إلى مكانه، وقع لا يستطيع حراكا، ولا يقدر على طلب الصيد؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياما لا يجدون طعاما: لأنهم كانوا يأكلون من

(١) يسار الأصم: يحدثه ويحاوره فى السر والخفاء.

فضلات الأسد وطعامه؛ فأصابهم جوع شديد وهزال، وعرف الأسد ذلك منهم.

فقال: لقد جهدتم[1] واحتجتم إلى ما تأكلون.

فقالوا: لا تهمنا أنفسنا: لكنا نرى الملك على ما نراه. فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه.

قال الأسد: ما أشك فى نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدا تأتوننى به؛ فيصيبنى ويصيبكم منه رزق.

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد؛ فتنحوا ناحية، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا:

مالنا ولهذا الآكل العشب الذى ليس شأنه من شأننا. ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزيِّن للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى: هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد: لأنه قد أمن الجمل، وجعل له من ذمته عهدا.

قال الغراب: أنا أكفيكم أمر الأسد. ثم انطلق فدخل على الأسد؛ فقال له الأسد: هل أصبت شيئا؟

قال الغراب: إنما يصيب من يسعى ويبصر. وأما نحن فلا سعى لنا ولا بصر: لما بنا من الجوع؛ ولكن قد وفقنا لرأى واجتمعنا عليه؛ إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون.

قال الأسد: وما ذاك؟

قال الغراب: هذا الجمل آكل العشب المتمرغ[2] بيننا من غير منفعة لنا منه، ولا رد عائدة[3]، ولا عمل يعقب مصلحة.

فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال:

---

(١) جُهِدْتُم: حصل لكم عنت ومشقة.

(٢) المتمرغ: المتقلب.

(٣) عائدة: فائدة.

ما أخطأ رأيك، وما أعجز مقالك، وأبعدك من الوفاء والرحمة! وما كنت حقيقا أن تجترئ عليَّ بهذه المقالة، وتستقبلنى بهذا الخطاب؛ مع ما علمت من أنى قد أمنت الجمل، وجعلت له من ذمتى. أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هى أعظم أجرا ممن أمن نفسا خائفة، وحقن دما[1] مهدرا؟ وقد أمنته ولست بغادر به.

قال الغراب: إنى لأعرف ما يقول الملك؛ ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة؛ والقبيلة يفتدى بها أهل المصر[2]؛ وأهل المصر فداء للملك. وقد نزلت بالملك الحاجة؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجا، على ألا يتكلف الملك ذلك، ولا يليه بنفسه، ولا يأمر به أحدا؛ ولكنا نحتال بحيلة لنا وله فيها إصلاح وظفر. فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب. فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه، فقال لهم:

قد كلمت الأسد فى أكله الجمل؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد، فنذكر ما أصابه، ونتوجع له اهتماما منا بأمره، وحرصا على صلاحه؛ ويعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملا[3] ليأكله، فيرد الآخران عليه، ويسفهان رأيه، ويبينان الضرر فى أكله. فإذا فعلنا ذلك، سلمنا كلنا ورضى الأسد عنا.

ففعلوا ذلك، وتقدموا إلى الأسد.

فقال الغراب: قد احتجتَ أيها الملك إلى ما يقويك؛ ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك: فإنا بك نعيش؛ فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك، ولا لنا فى الحياة من خيرة؛ فليأكلنى الملك: فقد طبت[4] بذلك نفسا.

---

(١) حقن دما: صانه ولم يرقه.

(٢) مصر: المدينة.

(٣) تجملًا: تكلف الجمال بحسن الخلق.

(٤) طبت: رضيت.

فأجابه الذئب وآبن آوى أن اسكت؛ فلا خير للملك فى أكلك؛ وليس فيك شبع. قال ابن آوى لكن أنا أشبع الملك، فليأكلنى: فقد رضيت بذلك، وطبت عنه نفسا. فرد عليه الذئب والغراب بقولهما:

إنك لمنتن قذر.

قال الذئب: إنى لست كذلك، فليأكلنى الملك، فقد سمحت بذلك، وطبت عنه نفسا؛ فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا:

قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب.

فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل، التمسوا له عذرا كما التمس بعضهم لبعض الأعذار، فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك. فقال:

لكن أنا فى للملك شبع ورى؛ ولحمى طيب هنى، وبطنى نظيف، فليأكلنى الملك، ويطعم أصحابه وخدمه: فقد رضيت بذلك، وطابت نفسى عنه، وسمحت به.

فقال الذئب والغراب وابن آوى: لقد صدق الجمل وكرم؛ وقال ما عرف. ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكى فإنى لست أقدر أن أمتنع منهم، ولا أحترس؛ وإن كان رأى الأسد لى على غير ما هم عليه من الرأى فى، فلا ينفعنى ذلك، ولا يغنى عنى شيئا. وقد يقال: خير السلاطين من عدل فى الناس. ولو أن الأسد لم يَكِنَّ[1] فى نفسه لى إلا الخير والرحمة، لغيرته كثرة الأقاويل: فإنها إذا كثرت لم تلبث دون أن تذهب الرقة والرأفة. ألا ترى أن الماء ألين من الحجر؛ وأن الحجر أشد من الإنسان؟ فالماء إذا دام انحداره على الحجر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثر فيه. وكذلك القول فى الإنسان.

(١) يَكِن: يضمر.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟

قال شتربة: ما أرى إلا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال: فإنه ليس للمصلى فى صلاته، ولا للمتصدق فى صدقته، ولا للورع فى ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه. إذا كانت مجاهدته على الحق.

قال دمنة: لا ينبغى لأحد أن يخاطر بنفسه، وهو يستطيع غير ذلك؛ ولكن ذا صاحب الرأى جاعل القتال آخر الحيل؛ وبادئ قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحل. وقد قيل: لا تحقرن العدو الضعيف المهين، ولا سيما إذا كان ذا حيلة ويقدر على الأعوان؛ فكيف بالأسد على جراءته وشدته؟ فإن من حقر عدوه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى[١].

قال شتربة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أن طائرا من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر، ومعه زوجة له، فلما جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر:

لو التمسنا مكانا حريزا[٢] نفرخ فيه: فإنى أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا.

فقال لها: أفرخى مكانك: فإنه موافق لنا؛ والماء والزهر منا قريب.

قالت له: يا غافل ليحسن نظرك: فإنى أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا.

فقال لها: أفرخى مكانك: فإنه لا يفعل ذلك.

فقالت له: ما أشد تعنتك[٣]! أماتذكر وعيده وتهدده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها. فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها، قالت له:

---

(١) الطيطوي: نوع من اليمام يفضل الحياة في الصحراء، يطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة.

(٢) حريزًا: حصينًا.

(٣) التعنت: إدخال المشقة.

إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين.

قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

* مثل السلحفاة والبطتين

قالت الأنثى: زعموا أن غديرا كان عنده عشب، وكان فيه بطتان وكان فى الغدير سلحفاة، بينها وبين البطتين مودة وصداقة. فاتفق أن غيض[1] ذلك الماء؛ فجاءت البطتان لوداع السلحفاة، وقالتا:

السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه.

فقالت: إنما يبين نقصان الماء على مثلى: فإنى كأنى السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء. فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما. فاذهبا بى معكما.

قالتا لها: نعم.

قالت: كيف السبيل إلى حملى؟

قالتا: نأخذ بطرفى عود، وتتعلقين بوسطه؛ ونطير بك فى الجو. وإياك، إذا سمعت الناس يتكلمون، أن تنطقى.

ثم أخذتاها فطارتا بها فى الجو. فقال الناس:

عجب: سلحفاة بين بطتين، قد حملتاها. فلما سمعت ذلك قالت:

فقأ الله أعينكم أيها الناس، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر: قد سمعت مقالتك؛ فلا تخافى وكيل البحر. فلما مد الماء ذهب بفراخهما.

فقالت الأنثى: قد عرفت فى بدء الأمر أن هذا كائن.

---

(١) أي: نزل الماء في الأرض وغاب فيها.

قال الذكر: سوف أنتقم منه.

ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن: إنكن أخواتى وثقاتى: فأعنَّنى.

قلن: ماذا تريد أن نفعل؟

قال: تجتمعن وتذهبن معى إلى سائر الطير، فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر؛ ونقول لهن:

إنكن طير مثلنا: فأعننا. فقالت له جماعة الطير:

إن العنقاء[1] هى سيدتنا وملكتنا: فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا؛ فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر؛ ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة ملكها. ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى، فاستغثنها؛ وصحن بها؛ فتراءت[2] لهن فأخبرنها بقصتهن؛ وسألنها أن تسير معهن إلى محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلى ذلك. فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته فى جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له به. فرد فراخ الطيطوى؛ وصالحه فرجعت العنقاء عنه.

وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الأسد لا أراه لك رأيا.

قال شتربة: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا ناصب له العداوة سرا ولا علانية ولا متغير له عما كنت عليه، حتى يبدوَ لى منه ما أتخوف فأغالبه. فكره دمنة قوله، وعلم أن الأسد إن لم ير من الثور العلامات التى كان ذكرها له اتهمه وأساء به الظن. فقال دمنة لشتربة: اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك.

قال شتربة: وكيف أعرف ذلك؟

قال دمنة: سترى الأسد حين تدخل عليه مقعيا[3] على ذنبه، رافعا صدره إليك،

---

(١) العنقاء: طاهر وهمي يضرب به المثل فيما هو مستحيل.

(٢) تراءت: ظهرت.

(٣) مقعيا: جالسًا.

مادا بصره نحوك، قد صر[١] أذنيه، وفغر فاه[٢]، واستوى للوثبة.

قال شتربة: إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك فى قولك، ثم إن دمنة لما فرغ من حمل الأسد على الثور، والثور على الأسد توجه إلى كليلة. فلما التقيا، قال كليلة: إلام[٣] انتهى عملك الذى كنت فيه؟

قال دمنة: قريب من الفراغ على ما أحب وتحب.

ثم إن كليلة ودمنة انطلقا جميعا ليحضرا قتال الأسد والثور، وينظرا ما يجرى بينهما، ويعاينا ما يؤول إليه أمرهما. وجاء شتربة، فدخل على الأسد، فرآه مقعيا كما وصفه له دمنة، فقال:

ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحية التى فى مبيته[٤] ومقيله[٥]، فلا يدرى متى تهيج به. ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التى ذكرها له دمنة: فلم يشك أنه جاء لقتاله. فواثبه، ونشأ بينهما الحرب، واشتد قتال الثور والأسد، وطال، وسالت بينهما الدماء. فلما رأى كليلة أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ.

قال لدمنة: أيها الفسل[٦] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك فى تدبيرك!

قال دمنة: وما ذاك؟

قال كليلة: جُرح الأسد وهلك الثور. وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلا. وإن العاقل يدبر الأشياء

---

(١) صر: أصغى.

(٢) فغر فاه: فتح فمه.

(٣) إلام: إلى أي شيء.

(٤) مبيته: أي وقت البيات والنوم.

(٥) مقيله: وقت قيلولته وهو وقت النوم من الظهيرة.

(٦) الفسل: الرديء الذي لا مروءة له.

ويقيسها قبل مباشرتها: فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه، ولم يلتفت إليه، وإنى لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا: فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل. أين معاهدتك إياى أنك لا تضر بالأسد فى تدبيرك؟ وقد قيل: لا خير فى القول إلا مع العمل، ولا فى الفقه إلا مع الورع، ولا فى الصدقة إلا مع النية، ولا فى المال إلا مع الجود، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء، ولا فى الحياة إلا مع الصحة، ولا فى الأمن إلا مع السرور.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش، ويزيد الأحمق طيشا؛ كما أن النهار يزيد كل ذى بصر نظرا، ويزيد الخفاش سوء النظر. وقد أذكرنى أمرك شيئا سمعته، فإنه يقال: إن السلطان إذا كان صالحا، ووزراؤه وزراء سوء، منعوا خيره، فلا يقدر أحد أن يدنوَ منه. ومثله فى ذلك مثل الماء الطيب الذى فيه التماسيح: لا يقدر أحد أن يتناوله، وإن كان إلى الماء محتاجا. وأنت يا دمنة أردت ألا يدنو من الأسد أحد سواك. وهذا أمر لا يصح ولا يتم أبدا. وذلك للمثل المضروب: إن البحر بأمواجه، والسلطان بأصحابه. ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، وطلب الآخرة بالرياء، ونفع النفس بضر الغير. وما عظتى وتأديبى إياك إلا كما قال الرجل للطائر:

لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال كليلة: زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكانا فى جبل، فالتمسوا فى ليلة باردة ذات رياح وأمطار نارا، فلم يجدوا، فرأوا يراعة[1] تطير كأنها شرارة نار، فظنوها نارا، وجمعوا حطبا كثيرا فألقوه عليها، وجعلوا ينفخون طمعا أن يوقدوا نارا يصطلون[2]

(١) يراعة: نوع من الذباب يطير بالليل يضيء ذيله..
(٢) يصطلون: يستدفأون..

بها من البرد. وكان قريبا منهم طائر على شجرة، ينظرون إليه، وينظر إليهم، وقد رأى ما صنعوا، فجعل يناديهم ويقول:

لا تتعبوا فإن الذى رأيتموه ليس بنار.

فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه، فمر به رجل فعرف ما عزم عليه. فقال له:

لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم: فإن الحجر المانع[1] الذى لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف، والعود الذى لا ينحنى لا يعمل منه القوس: فلا تتعب. فأبى الطائر أن يطيعه، وتقدم إلى القردة ليعرفهم أن اليراعة ليست بنار.

فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات. فهذا مثلى معك فى ذلك. ثم قد غلب عليك الخب[2] والفجور، وهما خلتا سوء، والخب شرهما عاقبة. ولهذا مَثل.

قال دمنة: وما ذلك المثل؟

* مثل الخب والمغفل

قال كليلة: زعموا أن خبا[3] ومغفلا اشتركا فى تجارة وسافرا، فبينما هما فى الطريق، إذ تخلف المغفل لبعض حاجته، فوجد كيسا فيه ألف دينار، فأخذه؛ فأحس به الخب، فرجعا إلى بلدهما؛ حتى إذا دنوا من المدينة قعدا لاقتسام المال. فقال المغفل:

خذ نصفه وأعطنى نصفه؛ وكان الخب قد قرر فى نفسه أن يذهب بالألف جميعه. فقال له: لا نقتسم، فإن الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصفاء والمخالطة؛ ولكن آخذ نفقة، وتأخذ مثلها؛ وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة: فهو مكان حريز. فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه، ولا يعلم بموضعنا أحد. فأخذا منه يسيرا،

(١) الحجر المانع: الصلب الضنين الممسك.

(٢) الخب: الغش والخداع..

(٣) خلتا: خصلتا..

ودفنا الباقى فى أصل دوحة[1]، ودخلا البلد. ثم إن الخب خالف المغفل إلى الدنانير فأخذها، وسوى الأرض كما كانت. وجاء المغفل بعد ذلك بأشهر فقال للخب:

قد احتجت إلى نفقة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا؛ فقام الخب معه وذهبا إلى المكان فحفرا، فلم يجدا شيئا. فأقبل الخب على وجهه يلطمه يقول:

لا تغتر بصحبة صاحب: خالفتنى إلى الدنانير فأخذتها. فجعل المغفل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخب إلا شدة فى اللطم.

وقال: ما أخذها غيرك. وهل شعر بها أحد سواك؟

ثم طال ذلك بينهما، فترافعا إلى القاضى، فاقتص القاضى قصتهما، فادعى الخب أن المغفل أخذها، وجحد المغفل.

فقال للخب، ألك على دعواك بينة؟

قال: نعم الشجرة التى كانت الدنانير عندها تشهد لى أن المغفل أخذها.

وكان الخب قد أمر أباه أن يذهب فيتوارى فى الشجرة بحيث إذا سئلت أجاب.

فذهب أبو الخب فدخل جوف الشجرة. ثم إن القاضى لما سمع ذلك من الخب أكبره، وانطلق هو وأصحابه والخب والمغفل معه؛ حتى وافى الشجرة؛ فسألها عن الخبر. فقال الشيخ من جوفها: نعم المغفل أخذها.

فلما سمع القاضى ذلك اشتد تعجبه. فدعا بحطب وأمر أن تحرق الشجرة. فأضرمت حولها النيران فاستغاث أبو الخب عند ذلك. فأُخرج وقد أشرف على الهلاك. فسأله القاضى عن القصة فأخبره بالخبر؛ فأوقع بالخب ضربا، وبأبيه صفعا[2]، وأركبه مشهورا[3]، وغرم الخب الدنانير؛ فأخذها وأعطاها المغفل.

---

(١) دوحة: شجرة كبيرة.

(٢) صفعا: ضربا علي الوجه والقفا.

(٣) أي: أزاع عنه السوء أركبه حمارا وجعل وجهه إلى خلفه وطاف به البلدة.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الخب والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون[١]. وإنك يا دمنة جامع للخب والخديعة والفجور. وإنى أخشى عليك ثمرة عملك، مع أنك لست بناج من العقوبة: لأنك ذو لونين ولسانين. وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار. وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد. وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التى فيها السم: فإنه قد يجرى من لسانك كسمها. وإنى لم أزل لذلك السم من لسانك خائفا، ولما يحل بك متوقعا، والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحية يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها، ثم لا يكون له منها غير اللدغ. وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك ومفارقتَهما؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلا كريما أو عاقلا غير كريم: فالعاقل الكريم كامل، والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل، الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك؛ والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق. وإنى بالفرار منك لجدير. وكيف يرجو إخوانك عندك كرما وودا وقد صنعت بملكك الذى أكرمك وشرفك ما صنعت؟ وإن مثلك مثل التاجر الذى قال: إن أرضا تأكل جرذانها[٢] مائة مَنٍّ[٣] حديدا، ليس بمستنكر على بزاتها[٤] أن تختطف الأفيال.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه لابتغاء الرزق؛ وكان عنده مائة مَنٍّ حديدا؛ فأودعها رجلا من إخوانه، وذهب فى وجهه. ثم قدم بعد ذلك بمدة؛ فجاء والتمس الحديد.

---

(١) المغبون: المخدوع المنقوص.

(٢) جرذان: فئران.

(٣) المن: رطلان الرطل سنجة كان يوزن بها أقل من نصف كيلو.

(٤) البازي: جنس من الطيور الصغيرة تميل أجنحتها إلي القصر وتميل أرجلها وأذيالها إلى الطول.

فقال له: إنه قد أكلته الجرذان.

فقال: قد سمعت أنه لا شيء أقطع من أنيابها للحديد.

ففرح الرجل بتصديقه على ما قال وادعى. ثم إن التاجر خرج، فلقى ابنا للرجل؛ فأخذه وذهب به إلى منزله؛ ثم رجع إليه الرجل من الغد فقال له:

هل عندك علم بابنى؟

فقال له التاجر: إنى لما خرجت من عندك بالأمس، رأيت بازيا قد اختطف صبيا، ولعله ابنك.

فلطم الرجل على رأسه وقال: يا قوم هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تخطف الصبيان؟

فقال: نعم. وإن أرضا تأكل جرذانها مائة مَنٍّ حديدا ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة.

قال له الرجل: أنا أكلت حديدك وهذا ثمنه. فاردد على ابنى.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فلا شك أنك بمن سواه أغدر؛ وأنه إذا صاحب أحد صاحبا وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع: فلا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له، وحباء[1] يصطنع عند من لا شكر له، وأدب يحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسر يستودع من لا يحفظه؛ فإن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر: كالريح إذا مرت بالطيب حملت طيبا، وإذا مرت بالنتن حملت نتنا وقد طال وثقل كلامى عليك.

فانتهى كليلة من كلامه إلى هذا المكان وقد فرغ الأسد من الثور. ثم فكر فى قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب. وقال:

(١) الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به من العطاء.

لقد فجعنى شتربة بنفسه؛ وقد كان ذا عقل ورأى وخلق كريم، ولا أدرى لعله كان بريئا أو مكذوبا عليه؛ فحزن وندم على ما كان منه، وتبين ذلك فى وجهه؛ وبصر به دمنة، فترك محاورة كليلة. وتقدم إلى الأسد فقال له:

ليهنئك الظفر[1] إذ أهلك أعداءك. فماذا يحزنك أيها الملك؟

قال: أنا حزين على عقل شتربة ورأيه وأدبه؟

قال له دمنة: لا ترحمه أيها الملك: فإن العاقل لا يرحم من يخافه. وإن الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه، ثم قربه وأدناه: لما يعلم عنده من الغناء والكفاية، فعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع رجاء منفعته. وربما أحب الرجل، وعز عليه، فأقصاه وأهلكه، مخافة ضرره؛ كالذى تلدغه الحية فى إصبعه فيقطعها ويتبرأ منها مخافة أن يسري سمها إلى بدنه. فرضي الأسد بقول دمنة. ثم علم الأسد بعد ذلك بكذبه وغدره وفجوره فقتله شر قتلة.

(انتهى باب الأسد والثَّوْر)

(١) أي: لتهنأ بالفوز.

الباب السادس

الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد حدثتنى عن الواشى الماهر المحتال، كيف يفسد بالنميمة المودة الثابتة بين المتحابين. فحدثنى فيما كان من حال دمنة وما آل أمره إليه بعد قتل شتربة، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه حين راجع الأسد رأيه فى الثور، وتحقق النميمة من دمنة، وما كانت حجته التى احتجَّ بها.

قال الفيلسوف: أنا وجدت فى حديث دمنة أن الأسد حين قتل شتربة ندم على قتله، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته، وأنه كان أكرم أصحابه عليه. وأخصهم منزلة لديه، وأقربهم وأدناهم إليه؛ وكان يواصل له المشورة دون خواصه. وكان من أخص أصحابه عنده بعد الثور النمر. فاتفق أنه أمسى النمر ذات ليلة عند الأسد؛ فخرج من عنده جوف الليل يريد منزله، فاجتاز على منزل كليلة ودمنة. فلما انتهى إلى الباب، سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه، ويلومه على النميمة واستعمالها؛ خصوصا مع الكذب والبهتان فى حق الخاصة. وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول له. فوقف يستمع ما يجرى بينهما فكان فيما قال كليلة لدمنة:

لقد ارتكبت مركبا صعبا، ودخلت مدخلا ضيقا، وجنيت على نفسك جناية موبقة[١]، وعاقبتها وخيمة[٢]؛ وسوف يكون مصرعك شديدا، إذا انكشف للأسد أمرك، واطلع عليه، وعرف غدرك ومحالك[٣]، وبقيت لا ناصر لك؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذرا من غوائلك؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلا، ولا مفشٍ إليك سرا؛ لأن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة فيه. وأنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص لى مما وقع فى نفس الأسد من هذا الأمر.

(١) موبقة: مهلكة.

(٢) وخيمة: وبيلة.

(٣) محالك: احتيالك.

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل[1] راجعا، فدخل على أم الأسد؛ فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تفشى ما يُسر إليها، فعاهدته على ذلك فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة. فلما أصبحت دخلت على الأسد، فوجدته كئيبا حزينا مهموما: لما ورد عليه من قتل شتربة. فقالت له: ما هذا الهم الذى قد أخذ منك، وغلب عليك؟

قال: يحزننى قتل شتربة؛ إذ تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتى، وما كنت أسمع من نصيحته، وأسكن إليه من مشاورته، وأقبل من مناصحته.

قالت أم الأسد: إن أشد ما شهد امرؤ على نفسه، وهذا خطأ عظيم؛ كيف أقدمت على قتل الثور بلا علم ولا يقين؟ ولولا ما قالت العلماء فى إذاعة الأسرار، وما فيها من الإثم والشنار[2]، لذكرت لك وأخبرتك بما علمتُ.

قال الأسد: إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة، ومعانٍ مختلفة. وإنى لأعلم صواب ما تقولين: وإن كان عندك رأى فلا تطويه عنى؛ وإن كان قد أسر إليك أحد سرا فأخبرينى به، وأطلعينى عليه، وعلى جملة الأمر.

فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه. وقالت: إنى لم أجهل قول العلماء فى تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار فى إذاعة الأسرار؛ ولكنى أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك؛ وإن وصل خطؤه وضرره إلى العامة فإصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم، وبه يحتج السفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة. وأشد معارهم[3] إقدامهم على ذى الحزم.

فلما قضت أم الأسد هذا الكلام، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه. ثم أمر أن يؤتى بدمنة. فلما وقف بين يدى الأسد، ورأى ما هو عليه من الحزن والكآبة،

---

(١) قفل: رجع

(٢) .الشنار: العار.

(٣) معارهم: معايبهم.

التفت إلى بعض الحاضرين فقال: ما الذى حدث؟ وما الذى أحزن الملك؟

فالتفتت أم الأسد إليه وقالت: قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين؛ ولن يدعك بعد اليوم حيّاً!

قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئا: لأنه يقال: أشد الناس فى توقى الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له. فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء؛ وقد علمت أنه قد قيل: من صحب الأشرار، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه: ولذلك انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها. ولا يجزى بالخير خيرا وبالإحسان إحسانا إلا الله؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس، كان حقيقا أن يحظى بالحرمان؛ إذ يخطئ الصواب فى خلوص العمل لغير الله تعالى وطلب الجزاء من الناس. وإن أحق ما رغبت فيه رعية الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير؛ وقد قالت العلماء: من صدق ما ينبغى أن يُكذب، وكذب ما ينبغى أن يصدق، خرج من مصاف العقلاء، وكان جديرا بالازدراء[1]. فينبغى ألا يعجل الملك فى أمرى بشبهة، ولست أقول هذا كراهة للموت: فإنه وإن كان كريها، لا منجى منه. وكل حي هالك. ولو كانت لى مائة نفس وأعلم أن هوى الملك فى إتلافهن، لطبت له بذلك نفسا.

فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبه الملكَ، ولكن لخلاص نفسه، والتماس العذر لها.

فقال له دمنة: ويلك! وهل على فى التماس العذر لنفسى عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ وإذا لم يلتمس لها العذر، فلمن يلتمسه؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنك لا تحب لأحد خيرا؛ وأنك عدو نفسك، فمن سواها بالأولى. فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلا عن أن يكون مع الملك، وأن يكون ببابه.

(١) ازدراء: امتهان واحتقار.

فلما أجابه بذلك، خرج مكتئبا حزينا مستحيا.

فقالت أم الأسد لدمنة: لقد عجبت منك، أيها المحتال، فى قلة حيائك، وكثرة وقاحتك، وسرعة جوابك لمن كلمك.

قال دمنة: لأنك تنظرين إلى بعين واحدة، وتسمعين منى بأذن واحدة، مع أن شقاوة جدى قد زوت[1] عنى كل شىء، حتى لقد سعوا إلى الملك بالنميمة عليَّ، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به، وطول كرامته إياهم، وما هم فيه من العيش والنعمة، لا يدرون فى أى وقت ينبغى لهم الكلام، ولا متى يجب عليهم السكوت.

قالت: ألا تنظرون إلى هذا الشقى، مع عظم ذنبه، كيف يجعل نفسه بريئا كمن لا ذنب له؟قال دمنة: إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شىء؛ كالذى يضع الرماد موضعا ينبغى أن يضع فيه الرمل؛ ويستعمل فيه السرجين[2]، والرجل الذى يلبس لباس المرأة، والمرأة التى تلبس لباس الرجل، والضيف الذى يقول: أنا رب البيت، والذى ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه. وإنما الشقى من لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس ولا يقدر على دفع الشر عن نفسه، ولا يستطيع ذلك.

قالت أم الأسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك، ولا يسجنك؟

قال دمنة: الغادر الذى لا يأمن عدوه مكره، وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب.

قالت أم الأسد: أيها الغادر الكذوب، أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟

---

(١) زوت: أبعدت.

(٢) سرجين: الزبل (يستخدم في سماد الأرض).

قال دمنة: الكذوب الذى يقول ما لم يكن، ويأتى بما لم يقل ولم يفعل، وكلامى واضح مبين.

قالت أم الأسد: العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفضل الخطاب. ثم نهضت فخرجت. فدفع الأسد دمنة إلى القاضى، فأمر القاضى بحبسه، فألقى فى عنقه حبل، وانطلق به إلى السجن.

فلما انتصف الليل أخبر كليلة أن دمنة فى الحبس. فأتاه مستخفيا؛ فلما رآه وما هو عليه من ضيق القيود، وحرج المكان[1]، بكى، وقال له: ما وصلتَ إلى ما وصلت إليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرابك عن العظة[2]؛ ولكن لم يكن لى بد فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك والمسارعة إليك فى خلوص الرغبة فيك: فإنه لكل مقام مقال؛ ولكل موضع مجال. ولو كنت قصرت فى عظتك حين كنت فى عافية، لكنت اليوم شريكك فى ذنبك؛ غير أن العجب دخل منك مدخلا قهر رأيك، وغلب على عقلك؛ وكنت أضرب لك الأمثال كثيرا، وأذكرك قول العلماء. وقد قالت العلماء: إن المحتال يموت قبل أجله!!.

قال دمنة: قد عرفت صدق مقالتك. وقد قالت العلماء: لا تجزع من العذاب إذا وقفت منك على خطيئة؛ ولأن تُعذب فى الدنيا بجرمك، خير من أن تعذب فى الآخرة بجهنم مع الإثم.

قال كليلة: قد فهمت كلامك؛ ولكن ذنبك عظيم، وعقاب الأسد شديد أليم.

وكان بقربهما فى السجن فهد معتقل يسمع كلامهما، ولا يريانه؛ فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله، وما كان منه؛ وأن دمنة مقر بسوء عمله، وعظيم ذنبه، فحفظ المحاورة بينهما، وكتمها ليشهد بها إن سئل عنها.

---

(١) حرج المكان: ضيق المكان.

(٢) العظة: الموعظة.

ثم إن كليلة انصرف إلى منزله، ودخلت أم الأسد حين أصبحت على الأسد؛ وقالت له: يا سيد الوحوش، حوشيت[1] أن تنسى ما قلت بالأمس؛ وأنك أمرت به لوقته؛ وأرضيت به رب العباد. وقد قالت العلماء: لا ينبغى للإنسان أن يتوانى فى الجد للتقوى؛ بل لا ينبغى أن يدافع عن ذنب الأثيم.

فلما سمع الأسد كلام أمه، أمر أن يحضر النمر، وهو صاحب القضاء. فلما حضر قال له وللجواس[2] العادل: اجلسا فى موضع الحكم، وناديا فى الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا فى حال دمنة، ويبحثوا عن شأنه، ويفحصوا عن ذنبه، ويثبتوا قوله وعذره فى كتب القضاء؛ وارفعا إلى ذلك يوما فيوما.

فلما سمع ذلك النمر والجواس العادل وكان هذا الجواس عم الأسد، قالا: سمعا وطاعة لما أمر الملك.

وخرجا من عنده؛ فعملا بمقتضى ما أمرهما به؛ حتى إذا مضى من اليوم الذى جلسوا فيه ثلاث ساعات، أمر القاضى أن يؤتى بدمنة؛ فأتى به، فأوقف بين يديه، والجماعة حضور. فلما استقر به المكان نادى سيد الجمع بأعلى صوته:

أيها الجمع. إنكم قد علمتم أن سيد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خائر[3] النفس، كثير الهم والحزن، يرى أنه قد قتل شتربة بغير ذنب؛ وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته. وهذا القاضى قد أمر أن يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة. فمن علم منكم شيئا فى أمر دمنة من خير أو شر، فليقل ذلك، وليتكلم به على رءوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء فى أمره بحسب ذلك؛ فإذا استوجب القتل فالتثبت فى أمره أولى، والعجلة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل.

---

(١) حوشيت: نزهت.

(٢) الجواس: أحد الأسود.

(٣) خائر: ضعيف واهن.

فعندها قال القاضى: أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم، ولا تكتموا ما عرفتم من أمره؛ واحذروا فى الستر عليه ثلاث خصال: إحداهن، وهى أفضلهن، ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيرا: فمن أعظم الخطايا قتل البريء الذى لا ذنب له بالكذب والنميمة؛ ومن علم من أمر هذا الكذاب الذى اتَّهم البرىء بكذبه ونميمته شيئا، فستر عليه فهو شريكه فى الإثم والعقوبة. والثانية إذا اعترف المذنب بذنبه، كان أسلم له، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الذم والفجور، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئا، فليتكلم به على رءوس الأشهاد ممن حضر، ليكون ذلك حجة عليه؛ وقد قيل: إنه من كتم شهادة ميت، أُلجم بلجام من نار يوم القيامة؛ فليقل كل واحد منكم ما علم.

فلما سمع ذلك الجمع كلامه، أمسكوا عن القول.

فقال دمنة: ما يسكتكم؟ تكلموا بما علمتم؛ واعلموا أن لكل كلمة جوابا. وقد قال العلماء: من يشهد بما لم ير، ويقول ما لا يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الذى قال لما لا يعلمه: إنى أعلمه. قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان فى بعض المدن طبيب له رفق[1] وعلم؛ وكان ذا فطنة[2] فيما يجرى على يديه من المعالجات؛ فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره. وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له؛ فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع. فجيء بهذا الطبيب؛ فلما حضر، سأل الجارية عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف داءها ودواءها؛ وقال: لو كنت أبصر، لجمعت الأخلاط على معرفتى بأجناسها؛ ولا أثق فى ذلك بأحد غيرى. وكان فى المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم وادعى علم

(١) رفق: لين.

(٢) فطنة: كياسة.

الطب، وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته؛ فلما دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية، ولا يدرى ما هى، ولا له بها معرفة، أخذ فى جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل بجنسه. فلما تمت أخلاط الأدوية، سقى الجارية منه، فماتت لوقتها. فلما عرف الملك ذلك، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء، فمات من ساعته.

وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل والعامل من الزلة بالشبهة فى الخروج عن الحد، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل، ونفسه الملومة. وقد قالت العلماء: ربما جزى المتكلم بقوله. والكلام بين أيديكم: فانظروا لأنفسكم.

فتكلم سيد الخنازير، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد؛ فقال: يا أهل الشرف من العلماء، اسمعوا مقالتى، وعوا بأحلامكم[1] كلامى، فالعلماء قالوا فى شأن الصالحين: إنهم يعرفون بسيماهم؛ وأنتم، معاشر ذوى الاقتدار، بحسن صنع الله لكم؛ وتمام نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم[2] وصورهم؛ وتخبرون الشىء الكبير بالشىء الصغير؛ وها هنا أشياء كثيرة تدل على الشقى دمنة، وتخبر عن شره؛ فاطلبوها على ظاهر جسمه: لتستيقنوا وتسكنوا إلى ذلك.

قال القاضى لسيد الخنازير: قد علمتُ، وعلم الجماعة الحاضرون، أنك عارف بما فى الصور من علامات السوء؛ ففسر لنا ما تقول، وأطلعنا على ما ترى فى صورة هذا الشقى. فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة، وقال: إن العلماء قد كتبوا وأخبروا: أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهى لا تزال تختلج[3]، وكان أنفه مائلا إلى

(١) أي: افهموا بعقولكم.

(٢) بسيماهم: بهيئتهم.

(٣) تختلج: تتحرك وتضطرب.

جنبه الأيمن، فهو شقى خبيث.

قال له دمنة: شأنك عجب، أيها القذر، ذو العلامات الفاضحة القبيحة، ثم العجب من جراءتك على طعام الملك، وقيامك بين يديه، مع ما بجسمك من القذر والقبح، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك؛ أفتتكلم فى النقى الجسم الذى لا عيب فيه؟ ولست أنا وحدى أطلع على عيبك؛ لكن جميع من حضر قد عرف ذلك. وقد كان يحجزنى عن إظهاره ما بينى وبينك من الصداقة. فأما إذ قد كذبت علىَّ وبهتنى فى وجهى، وقمت بعداوتى، فقلتُ ما قلت فى بغير علم على رءوس الحاضرين، فإنى أقتصر على إظهار ما أعرف من عيوبك، وتعرف الجماعة؛ وحق على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه؛ فلو كلفت أن تعمل بالزراعة لكنت جديرا بالخذلان فيها. فالأحرى بك ألا تدنو إلى عمل من الأعمال، وألا تكون دباغا ولا حجاما لعاميٍّ فضلا عن خاص خدمة الملك.

قال سيد الخنازير: أتقول لى هذه المقالة، وتلقانى بهذا الملقى؟ قال دمنة؛ نعم، وحقا قلت فيك، وإياك أعنى، أيها الأعرج المكسور الأفدع[١] الرجل، المنفوخ البطن، الأفلج[٢] الشفتين، السيئ المنظر والمخبر. فلما قال ذلك دمنة، تغير وجه سيد الخنازير واستعبر[٣] واستحى، وتلجلج لسانه، واستكان[٤] وفتر[٥] نشاطه.

فقال دمنة، حين رأى انكساره وبكاءه: إنما ينبغى أن يطول بكاؤك، إذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه، وحال بينك وبين خدمته، وأبعدك عن حضرته. ثم إن شغبرا[٦] كان الأسد قد جربه فوجد فيه أمانة وصدقا، فرتبه فى

(١) الأفدع: الذي به عوج.
(٢) الأفلج: المشقوق.
(٣) استعبر: حزن ودمعت عيناه.
(٤) استكان: ذَلَّ وخضع.
(٥) فتر: وهن وضعف.
(٦) شغبرًا: وهو ابن آوى.

خدمته، وأمره أن يحفظ ما يجرى بينهم، ويطلعه على ذلك. فقام الشغبر فدخل على الأسد فحدثه بالحديث كله على جليته[١].

فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله؛ وأمر ألا يدخل عليه، ولا يرى وجهه؛ وأمر بدمنة أن يسجن، وقد مضى من النهار أكثره؛ وجميع ما جرى وقالوا وقال قد كتب وختم عليه بخاتم النمر؛ ورجع كل واحد منهم إلى منزله.

ثم إن شغبرا (ابن آوى) يقال له روزبة، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة؛ وكان عند الأسد وجيها؛ وعليه كريما؛ واتفق أن كليلة أخذه الوجد[٢] إشفاقا وحذرا على نفسه وأخيه، فمرض ومات؛ فانطلق هذا الشغبر إلى دمنة، فأخبره بموت كليلة فبكى وحزن؛ وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الصفى! ولكن أحمد الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتى أبقى لى من ذوى قرابتى أخا مثلك: فإنى قد وثقت بنعمة الله تعالى وإحسانه إلى فيما رأيت من اهتمامك بى ومراعاتك لى، وقد علمت أنك رجائى وركنى[٣] فيما أنا فيه؛ فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا، فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخى بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى، فتأتينى به؛ ففعل الشغبر ما أمره به دمنة.

فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره[٤]؛ وقال له: إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك، فتفرغ لشأنى، واصرف اهتمامك إلى؛ واسمع ما أُذكر به عند الأسد، إذا رفع إليه ما يجرى بينى وبين الخصوم؛ وما يبدو من أم الأسد فى حقى، وما ترى من متابعة الأسد لها، ومخالفته إياها فى أمرى؛ واحفظ ذلك كله.

فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد.

فانطلق إلى منزله فوضع المال فيه. ثم إن الأسد بكر من الغد فجلس، حتى إذا

---

(١) جليته: حقيقته الظاهرة.

(٢) الوجد: الهم.

(٣) ركني: سندي.

(٤) شطره: نصفه.

مضى من النهار ساعتان، استأذن عليه أصحابه، فأذن لهم، فدخلوا عليه، ووضعوا الكتاب بين يديه. فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمه فقرأ عليها ذلك.

فلما سمعت ما فى الكتاب نادت بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت فى القول فلا تلمنى: فإنك لست تعرف ضرك من نفعك. أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه: لأنه كلام هذا المجرم المسىء إلينا، الغادر بذمتنا؟ ثم إنها خرجت مغضبة، وذلك بعين الشغبر الذى آخاه دمنة وبسمعه. فخرج فى أثرها مسرعا، حتى أتى دمنة، فحدثه بالحديث. فبينما هو عنده إذ جاء رسول، فانطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضى. فلما مثل بين يدى القاضى استفتح سيد المجلس فقال: يا دمنة، قد أنبأنى بخبرك الأمين الصادق؛ وليس ينبغى لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا: لأن العلماء قالوا: إن الله تعالى جعل الدنيا سببا ومصداقا للآخرة: لأنها دار الرسل والأنبياء الدَّالين على الخير، الهادين إلى الجنة، الداعين إلى معرفة الله تعالى. وقد ثبت شأنك عندنا؛ وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله، إلا أن سيدنا أمرنا بالعود فى أمرك والفحص عن شأنك، وإن كان عندنا ظاهرا بينا.

قال دمنة: أراك أيها القاضى لم تتعود العدل فى القضاء؛ وليس فى عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل؛ بل المخاصمة عنهم والذوْد[1]. فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك، ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام. ولكن صدق الذى قال: إن الذى تعود عمل البر هين عليه عمله، وإن أضر به.

قال القاضى: إنا نجد فى كتب الأولين: أن القاضى ينبغى له أن يعرف عمل المحسن والمسىء، ليجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته؛ فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصا على الإحسان، والمسيئون اجتنابا للذنوب. والرأى لك، يا دمنة، أن تنظر الذى وقعت فيه، وتعترف بذنبك، وتقر به، وتتوب.

فأجابه دمنة: إن صالحى القضاة لا يقطعون بالظن، ولا يعملون به، لا فى

(١) الذود: الدفاع.

الخاصة ولا فى العامة: لعلمهم أن الظن لا يغنى من الحق شيئا. وأنتم إن ظننتم أنى مجرم فيما فعلت، فإنى أعلم بنفسى منكم؛ وعلمى بنفسى يقين لا شك فيه؛ وعلمكم بى غاية الشك؛ وإنما قبح أمرى عندكم أنى سعيت بغيرى، فما عذرى عندكم إذا سعيت بنفسى كاذبا عليها، فأسلمتها للقتل والعطب، على معرفة منى ببراءتى وسلامتى مما قرفت[1] به؟ ونفسى أعظم الأنفس على حرمة وأوجبها حقا. فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم، لما وسعنى فى دينى، ولا حسن بى فى مروءتى، ولا حق لى أن أفعله؛ فكيف أفعله بنفسى؟ فاكفف[2] أيها القاضى عن هذه المقالة: فإنها إن كانت منك نصيحة، فقد أخطأت موضعها؛ وإن كانت خديعة؛ فإن أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنه من غير أهله؛ مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحى القضاة، ولا تقاة الولاة.

واعلم أن قولك مما يتخذه الجهال والأشرار سنة يقتدون بها؛ لأن أمور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب، وبخطئها أهل الخطأ والباطل والقليلو الورع؛ وأنا خائف عليك أيها القاضى من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا؛ وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل فى نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلا فى رأيك، مقنعا فى عدلك، مرضيا فى حكمك وعفافك وفضلك؛ وإنما البلاء كيف أُنسيت ذلك فى أمرى.

فلما سمع القاضى ذلك من لفظ دمنة، نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه فنظر فيه الأسد، ثم دعا أمه فعرضه عليها.

فقالت حين تدبرت كلام دمنة للأسد: لقد صار اهتمامى بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك، أعظم من اهتمامى بما سلف من ذنبه إليك فى الغش والسعاية، حتى قتلت صديقك بغير ذنب. فوقع قولها فى نفسه، فقال لها: أخبرينى عن الذى أخبرك عن دمنة بما أخبرك، فيكون حجة لى فى قتلى دمنة.

---

(١) قرفت: اتهمت.

(٢) اكفف: انصرف وامتنع.

فقالت: إنى لأكره أن أفشى سر من استكتمنيه[1]؛ فلا يهنئنى سرورى بقتل دمنة إذا تذكرت أنى استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف السر؛ ولكنى أطالب الذى استودعنيه[2] أن يجعلنى فى حل من ذكره لك؛ أو يقوم هو بعلمه وما سمع منه. ثم انصرفت، وأرسلت إلى النمر، وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد على الحق، وإخراج نفسه من الشهادة التى لا يكتمها مثله، مع ما يحق عليه من نصر المظلومين، وتثبيت حجة الحق فى الحياة والممات: فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة. فلم تزل به، حتى قام فدخل على الأسد، فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة. فلما شهد النمر بذلك، أرسل الفهد المحبوس الذى سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال:

إن عندى شهادة. فأخرجوه، فشهد على دمنة بما سمع من إقراره.

فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوما بشهادتكما، وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة؟.

فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكما فكرهنا التعرض لغير ما يمضى به الحكم؛ حتى إذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته، فقبل الأسد قولهما. وأمر بدمنة أن يقتل فى حبسه: فقتل أشنع قتلة.

فمن نظر فى هذا فليعلم أن من أراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة[3] والمكر، فإنه سيُجْزَى على خلابته ومكره.

(انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

(١) استكتمنيه: طلب مني أن أكتمه.

(٢) استودعنيه: أودعه عندي.

(٣) الخلابة: الخديعة بلطف القول.

الباب السابع

بـــاب الحمـــامـــة المطوقـــة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك، فحدثنى، إن رأيت؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض؟

قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا. فالإخوان هم الأعوان على الخير كلِّه، والمؤاسون[١] عند ما ينوب[٢] من المكروه. ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوَّقة والجرذ والظبى[٣] والغراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق. فيها وكر غراب. فبينما هو ذات يوم ساقط فى وكره إذ بصياد قبيح المنظر، سيئ الخلق، على عاتقه شبكة، وفى يده عصا، مقبلا نحو الشجرة؛ فذعر[٤] منه الغراب؛ وقال:

لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان: إما حينى[٥] وإما حين غيرى. فلأثبتن مكانى حتى أنظر ماذا يصنع ثم إن الصياد نصب شبكته، ونثر[٦] عليها الحب، وكمن[٧] قريبا منها؛ فلم يلبث إلا قليلا، حتى مرت به حمامة يقال لها المطوَّقة، وكانت سيدة الحمام،

(١) المؤاسون: المواسون.
(٢) عندما ينوب: عندما يعود.
(٣) الظبي: جنس حيوانات من ذوات الأظلاف والقرون وهي من فصيلة الغزلان.
(٤) فذعر: فخاف.
(٥) حيني: هلاكي.
(٦) نثر: رش.
(٧) كمن: اختبأ

ومعها حمام كثير؛ فعميت هى وصواحبها عن الشرك[1]، فوقعن على الحب يلتقطنه، فعلقن فى الشبكة كلهن؛ وأقبل الصياد فرحا مسرورا. فجعلت كل حمامة تضطرب فى حبائلها، وتلتمس الخلاص لنفسها.

قالت المطوقة: لا تخاذلن فى المعالجة[2]، ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعا، لعلنا نقتلع الشبكة، فينجو بعضنا ببعض؛ فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن، وعلون فى الجو؛ ولم يقطع الصياد رجاءه[3] منهن وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريبا ويقعن.

فقال الغراب:

لأتبعهن وأنظر ما يكون منهن، فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن.

فقالت للحمام: هذا الصياد مجد فى طلبكن؛ فإن نحن أخذنا فى الفضاء لم يخف عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا؛ وإن نحن توجهنا إلى العمران خفى عليه أمرنا، وانصرف. وبمكان كذا جرذ هو لى أخ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك. ففعلن ذلك. وأيس الصياد منهن وانصرف. وتبعهن الغراب. فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف؛ فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه زيرك.

فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟

قالت: أنا خليلتك[4] المطوقة.

فأقبل إليها الجرذ يسعى.

---

(١) الشرك: الشباك

(٢) تتلجلج.

(٣) أمله.

(٤) صاحبتك.

فقال لها: ما أوقعك فى هذه الورطة؟

قالت له: ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شىء إلا وهو مقدر على من تصيبه المقادير، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمرا؛ وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضى ذلك عليهما.

ثم إن الجرذ أخذ فى قرض[1] العُقد الذى فيه المطوقة.

فقالت له المطوقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبعد ذلك أقبل على عقدى؛ وأعادت ذلك عليه مرارا، وهو لا يلتفت إلى قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها:

لقد كررت القول علىَّ كأنك ليس لك فى نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة، ولا ترعين لها حقا.

قالت: إنى أخاف، إن أنت بدأت بقطع عقدى أن تمل وتكسل عن قطع ما بقى؛ وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلى، وكنت أنا الأخيرة، لم ترض، وإن أدركك الفتور، أن أبقى فى الشَّرك.

قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك.

ثم إن الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها. فلما رأى الغراب صنع الجرذ، رغب فى مصادقته؛ فجاء وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له: ما حاجتك؟

قال: إنى أريد مصادقتك.

قال الجرذ: ليس بينى وبينك تواصل؛ وإنما العاقل ينبغى له أن يلتمس[2] ما يجد

(١) قرض: قطع بأسنانه.

(٢) يلتمس: يطلب.

إليه سبيلا، ويترك التماس ما ليس إليه سبيل؛ فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك.

قال الغراب: إن أكلى إياك، وإن كنت لى طعاما، مما لا يغنى عنى شيئا؛ وإن مودتك آنس[1] لى مما ذكرت؛ ولست بحقيق، إذا جئت أطلب مودتك، أن تردنى خائبا. فإنه قد ظهر لى منك من حسن الخلق ما رغبنى فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك: فإن العاقل لا يخفى فضله، وإن هو أخفاه؛ كالمسك الذى يُكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح[2].

قال الجرذ: إن أشد العداوة عداوة الجوهر: وهى عداوتان: منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد. فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد؛ ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بينى وبين السنور وبينى وبينك: فإن العداوة التى بيننا ليست تضرك؛ وإنما ضررها عائد علىَّ: فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها؛ وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول: وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالتى، ولا تصعب علىَّ الأمر بقولك: ليس إلى التواصل بيننا سبيل: فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب: بطىء الانكسار، سريع الإعادة، هين الإصلاح، إن أصابه ثلم[3] أو كسر؛ والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطىء اتصالها. ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار، سريع الانكسار، ينكسر من أدنى عيب، ولا وصل

---

(١) الأرج الفائح: الطيب المنتشر.

(٢) السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية من رتبة اللواحم، يفضل أكل الفئران ومنه ما هو أهليٌّ وبريٌّ.

(٣) ثلم: كُسِرَ حرفه.

له أبدا. والكريم يود الكريم، واللئيم لا يود أحدا إلا عن رغبة أو رهبة. وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج: لأنك كريم؛ وأنا ملازم لبابك، غير ذائق طعاما، حتى تؤاخيني.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك: فإنى لم أردد أحدا عن حاجة قط، وإنما بدأتك بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسى؛ فإن أنت غدرت بى لم تقل: إنى وجدت الجرذ سريع الانخداع. ثم خرج من جحره، فوقف عند الباب.

فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إلى، والاستئناس بى؟ فهل فى نفسك بعد ذلك منى ريبة؟

قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين، ويتواصلون عليهما، وهما ذات النفس، وذات اليد. فالمتباذلون[1] ذات النفس هم الأصفياء؛ وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض. ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا. فإنما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير، وإنما يريد نفع نفسه. فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد. وإنى وثقت منك بذات نفسك، ومنحتك من نفسى مثل ذلك. وليس يمنعنى من الخروج إليك سوء ظن بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ كرأيك.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا، ولعدو صديقه عدوا؛ وليس لى بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبا؛ وإنه يهون على قطيعة من كان كذلك من جوهرى.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب، فتصافحا[2] وتصافيا، وأنس كل واحد منهما بصاحبه؛ حتى إذا مضت لهما أيام.

(١) المتباذلون: الذين يجودون بأنفسهم عن طيب نفس.

(٢) المصافحة: السلام.

قال الغراب للجرذ: إن جحرك قريب من طريق الناس، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر؛ ولي مكان فى عزلة[١]، ولى فيه صديق من السلاحف، وهو مخصب من السمك؛ ونحن واجدون هناك ما نأكل؛ فأريد أن أنطلق بك إلى هناك لنعيش آمنين.

قال الجرذ: إن لى أخبارا وقصصا سأقصها عليك إذا انتهينا حيث تريد، فافعل ما تشاء.

فأخذ الغراب بذنب الجرذ، وطار به حتى بلغ به حيث أراد. فلما دنا من العين التى فيها السلحفاة، بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ، فذعرت منه، ولم تعلم أنه صاحبها؛ فناداها، فخرجت إليه، وسألته:

من أين أقبلت؟

فأخبرها بقصته حين تبع الحمام، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها. فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ، عجبت من عقله ووفائه، ورحبت به، وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟

قال الغراب للجرذ: اقصص عليَّ الأخبار التى زعمت أنك تحدثنى بها، فأخبرنى بها مع جواب ما سألت السلحفاة: فإنها عندك بمنزلتى[٢].

فبدأ الجرذ وقال: كان منزلى أول أمرى بمدينة ماروت فى بيت رجل ناسك؛ وكان خاليا من الأهل والعيال؛ وكان يؤتى فى كل يوم بسلة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقى؛ وكنت أرصد[٣] الناسك، حتى يخرج وأثب إلى السلة، فلا أدع

(١) عزلة: معزول وبعيد عن أعين الناس.
(٢) منزلتي: مكانتي.
(٣) أرصد: أراقب.

فيها طعاما إلا أكلته، وأرمى به إلى الجرذان. فجهد الناسك مرارا[1] أن يعلق السلة مكانا لا أناله فلم يقدر على ذلك؛ حتى نزل به ذات ليلة ضيف، فأكلا جميعا؛ ثم أخذا فى الحديث، فقال الناسك للضيف: من أى أرض أقبلت؟ وأين تريد الآن؟

وكان الرجل قد جاب الآفاق، ورأى عجائب؛ فأنشأ يحدث الناسك عما وطئ من البلاد، ورأى من العجائب؛ وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه، لينفرنى[2] عن السلة؛ فغضب الضيف وقال:

أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثى! فما حملك[3] على أن سألتنى؟

فاعتذر إليه الناسك، وقال: إنما أصفق بيدى لأنفر جرذا قد تحيرت فى أمره، ولست أضع فى البيت شيئا إلا أكله.

فقال الضيف:جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟

فقال الناسك: جرذان البيت كثيرة، ولكن فيها جرذ واحد هو الذى غلبنى، فما أستطيع له حيلة.

قال الضيف: لقد ذكرتنى قول الذى قال: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور!

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

قال الضيف: نزلت مرة على رجل بمكان كذا، فتعشينا، ثم فرش لى. وانقلب[4] على فراشه، فسمعته يقول فى آخر الليل لامرأته:

---

(١) مرارًا: مرة بعد مرة.

(٢) ينفرني: يبعدني.

(٣) حملك: دفعك.

(٤) انقلب: نام.

إنى أريد أن أدعو غدا رهطا[١] ليأكلوا عندنا، فاصنعى لهم طعاما.

فقالت المرأة: كيف تدعو الناس إلى طعامك، وليس فى بيتك فضل[٢] عن عيالك؟ وأنت رجل لا تبقى شيئا ولا تدخره[٣].

قال الرجل: لا تندمى على شىء أطعمناه وأنفقناه: فإن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب.

قالت المرأة وكيف كان ذلك؟

قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص[٤]، ومعه قوسه ونشابه[٥] فلم يجاوز غير بعيد، حتى رمى ظبيا، فحمله ورجع طالبا منزله؛ فاعترضه خنزير برى فرماه بنشابة نفذت فيه؛ فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس، ووقعا ميتين؛ فأتى عليهم ذئب فقال:

هذا الرجل والظبى والخنزير يكفينى أكلهم مدة؛ ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله، فيكون قوت يومى.

فعالج الوتر حتى قطعه؛ فلما انقطع طارت سية القوس، فضربت حلقة فمات. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمى أن الجمع والادخار وخيم العاقبة.

فقالت المرأة: نعم ما قلت! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفى ستة نفر أو سبعة، فأنا غادية على اصطناع الطعام؛ فادع من أحببت.

وأخذت المرأة حين أصبحت سمسما فقشرته، وبسطته فى الشمس ليجف؛ وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب؛ وتفرغت المرأة لصنعها؛ وتغافل الغلام عن

(١) الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة (الجمع) أرهاط.
(٢) الفضل: الباقي الزائد عن الحاجة.
(٣) تدخره: توفره.
(٤) قانص: صائد.
(٥) النشاب: النِّبل.

السمسم؛ فجاء كلب، فعاث فيه؛ فاستقذرته المرأة، وكرهت أن تصنع منه طعاما؛ فذهبت به إلى السوق، فأخذت به مقايضة سمسما غير مقشور: مثلا بمثل، وأنا واقف فى السوق.

فقال رجل: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور. وكذلك قولى فى هذا الجرذ الذى ذكرت أنه على غير علة ما يقدر على ما شكوت منه. فالتمس لى فأسا لعلى أحتفر جحره فأطلع على بعض شأنه! فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسا، فأتى بها الضيف؛ وأنا حينئذ فى جحر غير جحرى أسمع كلامهما، وفى جحرى كيس فيه مائة دينار، لا أدرى من وضعها، فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك: ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب[١] حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير: فإن المال جعل له قوة وزيادة فى الرأى والتمكن. وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب. فلما كان من الغد اجتمع الجرذان التى كانت معى فقالت:

قد أصابنا الجوع، وأنت رجاؤنا. فانطلقت ومعى الجرذان إلى المكان الذى كنت أثب منه إلى السلة، فحاولت ذلك مرارا: فلم أقدر عليه. فاستبان[٢] للجرذان نقص حالى؛ فسمعتهن يقلن:

انصرفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده: فإنا نرى له حالا لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله[٣]. فتركننى ولحقن بأعدائى وجفوننى[٤]، وأخذن فى غيبتى عند من يعادينى ويحسدنى. فقلت فى نفسى:

ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمرا، قعد به العدم[٥] عما يريده: كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء: لا يمر

(١) الوثوب: القفز.
(٢) استبان: تبين.
(٣) يعوله: يتكفل به.
(٤) جفونني: أعرضوا عني وقاطعوني.
(٥) العدم: الفقر الذي يُفقده كل شيء ويُذهِب عنه ما يريد.

إلى نهر ولا يجرى إلى مكان، فتشربه أرضه، ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له: لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه: فإن الشجرة النابتة فى السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى الناس.

ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبا إلى صاحبه كل مقت[١]، ومعدن النميمة. ووجدت الرجل إذا افتقر إلى صاحبه اتهمه من كان له مؤتمنا، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسنا: فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا. وليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم، فإن كان شجاعا قيل: أهوج؛ وإن كان جوادا سمى مبذرا[٢]؛ وإن كان حليما سمى ضعيفا؛ ، وإن كان وقورا سمى بليدا. فالموت أهون من الحاجة التى تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام: فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده فى فم الأفعى، فيخرج منه سما فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه، وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم. وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك، فجعل الناسك نصيبه فى خريطة عند رأسه لما جن الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئا فأرده إلى جحرى، ورجوت أن يزيد ذلك فى قوتى، ويراجعنى بسببه بعض أصدقائى، فانطلقت إلى الناسك وهو نائم، حتى انتهيت عند رأسه، ووجدت الضيف يقظان، وبيده قضيب، فضربنى على رأسى ضربة موجعة، فسعيت إلى جحرى. فلما سكن عنى الألم، هيجنى الحرص والشره[٣]، فخرجت طمعا كطمعى الأول، وإذا الضيف يرصدنى، فضربنى ضربة أسالت منى الدم؛ فتقلبت ظهرا لبطن إلى جحرى، فخررت مغشيا[٤] على، فأصابنى من الوجع

(١) المقت: الكره والبغض.

(٢) مبذرًا: مسرفًا.

(٣) شره: اشتهى.

(٤) مغشيّاً: مغميٌّ فاقد الوعي.

ما بغَّض إلى المال، حتى لا أسمع بذكره إلا تداخلنى من ذكر المال رعدة وهيبة، ثم تذكرت فوجدت البلاء فى الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا فى بلية[١] وتعب ونصب[٢]؛ ووجدت تجشم[٣] الأسفار البعيدة فى طلب الدنيا أهون على من بسط اليد إلى السخى بالمال، ولم أر كالرضا شيئا، فصار أمرى إلى أن رضيت وقنعت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية. وكان لى صديق من الحمام، فسيقت إلى بصداقته صداقة. ثم ذكر لى الغراب ما بينك وبينه من المودة، وأخبرنى أنه يريد إتيانك، فأحببت أن آتيك معه، فكرهت الوحدة، فإنه لا شىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم.

وجربت: فعلمت أنه لا ينبغى للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف[٤] الذى يدفع به الأذى عن نفسه: وهو اليسير من المطعم والمشرب، إذا اشتمل على صحة البدن ورفاهة البال[٥]. ولو أن رجلا وهبت له الدنيا بما فيها، لم يك ينتفع من ذلك إلا بالقليل الذى يدفع به عن نفسه الحاجة: فأقبلت مع الغراب إليك على هذا الرأى، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتى عندك كذلك.

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق عذب، وقالت:

قد سمعت كلامك، وما أحسن ما تحدثت به! إلا أنى رأيتك تذكر بقايا أمور هى نفسك. من حيث قلة مالك وسوء حالك واغترابك عن مواطنك فاطرح ذلك من قلبك. واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذى قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به، لم يغن علمه به شيئا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة. فاستعمل

(١) بلية: محنة.

(٢) النصب: التعب والإعياء.

(٣) تجشم: تكلفها على مشقة.

(٤) الكفاف: مقدار الحاجة من غير زيادة.

(٥) رفاهة البال: راحة البال.

رأيك، ولا تحزن لقلة المال: فإن الرجل ذا المروءة قد يُكرم على غير مال: كالأسد الذى يُهاب، وإن كان رابضا[١]؛ والغنى الذى لا مروءة له يهان، وإن كان كثير المال: كالكلب لا يحفل به[٢]، وإن طوق وخلخل[٣] بالذهب. فلا تكبرن عليك غربتك: فإن العاقل لا غربة له: كالأسد الذى لا ينقلب إلا ومعه قوَّته. فلتحسن تعاهدك لنفسك: فإنك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره. وإنما جعل الفضل للحازم البصير بالأمور؛ وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه، ولا يحزنك أن تقول: «كنت ذا مال فأصبحت معدما»، فإن المال وسائر متاع الدنيا سريع إقباله إذا أقبل، وشيك إدباره إذا أدبر؛ كالكرة التى هى سريع ارتفاعها وسريع وقوعها. وقد قيل فى أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة فى الصيف، وخلة الأشرار، وعشق النساء والثناء الكاذب والبناء على غير أساس، والمال الكثير: فالعاقل لا يحزن لقلته، وإنما مال العاقل عقله، وما قدم من صالح عمله؛ فهو واثق بأنه لا يَسلب[٤] ما عمل، ولا يؤاخذ بشىء لم يعمله؛ وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته: فإن الموت لا يأتى إلا بغتة[٥]، ليس له وقت معين. وأنت عن موعظتى غنى بما عندك من العلم. ولكن رأيت أن أقضى ما لك من حق قِبلنا[٦]: لأنك أخونا، وما عندنا من النصح مبذول لك.

فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ، وردها عليه، وملاطفتها[٧] إياه فرح بذلك؛ وقال: لقد سررتنى، وأنعمت علىَّ، وأنت جديرة أن تسرى نفسك بمثل

---

(١) رابضًا: جالسًا.

(٢) لا يحفل به: لا يعبأ به.

(٣) خلخل: أُلبس الخلخال من الذهب.

(٤) يسلب: ينتزع قهرًا.

(٥) بغتة: فجأة.

(٦) قِبَلَنَا: عندنا.

(٧) ملاطفة: مداعبة.

ما سررتنى به. وإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه[١] من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورا، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد: فإن الكريم إذا عثر[٢] لا يأخذ بيده إلا الكرام: كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفيلة.

فبينما الغراب فى كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبى يسعى، فذعرت منه السلحفاة، فغاصت فى الماء، وخرج الجرذ إلى جحره، وطار الغراب، فوقع على شجرة، ثم إن الغراب حلق فى السماء لينظر هل للظبى طالب؟ فنظر فلم ير شيئا؛ فنادى الجرذ والسلحفاة، وخرجا؛ فقالت السلحفاة للظبى، حين رأته ينظر إلى الماء:

اشرب إن كان بك عطش، ولا تخف: فإنه لا خوف عليك.

فدنا الظبى، فرحبت به السلحفاة وحيته، وقالت له: من أين أقبلت؟

قال: كنت أسنح بهذه الصحارى، فلم تزل الأساورة[٣] تطردنى من مكان إلى مكان، حتى رأيت اليوم شبحا. فخفت أن يكون قانصا.

قالت: لا تخف: فإنا لم نر هاهنا قانصا قط؛ ونحن نبذل لك ودنا ومكاننا، والماء والمرعى كثيران عندنا: فارغب فى صحبتنا.

فأقام الظبى معهم، وكان لهم عريش[٤] يجتمعون فيه، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار. فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم فى العريش، غاب الظبى، فتوقعوه ساعة[٥]، فلم يأت. فلما أبطأ أشفقوا[٦] أن يكون قد أصابه عنت[٧]، فقال

---

(١) ربعه: بيته.

(٢) عثر: زل وكب.

(٣) الأساورة: الذين يرمون بالسهام والنبال.

(٤) عريش: المكان الذي يستظل به.

(٥) أي: انتظروه ساعة.

(٦) أشفقوا: خافوا.

(٧) عنت: تعب وإرهاق من أمر مكروه.

الجرذ والسلحفاة للغراب:

انظر هل ترى مما يلينا شيئا؟

فحلق الغراب فى السماء فنظر: فإذا الظبى فى الحبائل مقتنَصا، فانقض مسرعا، فأخبرهما بذلك، فقالت السلحفاة والغراب للجرذ:

هذا أمر لا يرجى فيه غيرك فأغث[1] أخاك.

فسعى الجرذ مسرعا. فأتى الظبى، فقال له:

كيف وقعت فى هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قال الظبى: هل يغنى الكيس مع المقادير شيئا، فبينما هما فى الحديث إذ وافتهما[2] السلحفاة.

فقال لها الظبى: ما أصبت بمجيئك إلينا: فإن القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقته عدْوا، وللجرذ أحجار كثيرة، والغراب يطير، وأنت ثقيلة: لا سعى لك ولا حركة، وأخاف عليك القانص.

قالت: لا عيش مع فراق الأحبة، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده، وحرم سروره، وغشى بصره. فلم ينته كلامها حتى وافى القانص؛ ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك؛ فنجا الظبى بنفسه، وطار الغراب محلقا، ودخل الجرذ بعض الأحجار، ولم يبق غير السلحفاة؛ ودنا الصياد فوجد حبالته مقطعة، فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة تدب، فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والظبى أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة، فاشتد حزنهم، وقال الجرذ:

ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلا صرنا فى أشد منها. ولقد صدق الذى قال:

---

(١) أغاث: ساعد وأجار.

(٢) وافى: جاء.

لا يزال الإنسان مستمرا فى إقباله ما لم يعثر؛ فإذا عثر لج[١] به العثار، وإن مشى فى جدد الأرض[٢]، وحذرى على السلحفاة خير الأصدقاء التى خلتها ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة، ولكنها خلة الكرم والشرف، خلة هى أفضل من الوالد لولده، خلة لا يزيلها إلا الموت، ويح[٣] لهذا الجسد الموكل به البلاء الذى لا يزال فى تصرف وتقلب، ولا يدوم له شىء، ولا يلبث معه أمر: كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل[٤] منها أفول، لكن لا يزال الطالع منها آفلا، والآفل طالعا؛ وكما تكون آلام الكلوم[٥] وانتقاض (انتكاس) الجراحات، كذلك من قرحت[٦] كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم.

فقال الظبى والغراب للجرذ: إن حذرنا وحذرك وكلامك، وإن كان بليغا، كل منها لا يغنى عن السلحفاة شيئا. وإنه كما يقال: إنما يختبر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة[٧]، كذلك يختبر الإخوان عند النوائب[٨].

قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب، أيها الظبى، فتقع بمنظر من القانص: كأنك جريح؛ ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك؛ وأسعى أنا فأكون قريبا من القانص، مراقبا له، فعله أن يرمى ما معه من الآلة، ويضع السلحفاة، ويقصدك طامعا فيك، راجيا تحصيلك. فإذا دنا منك ففر عنه رويدًا رويدًا بحيث لا ينقطع طمعه منك، ومكنه من أخذك مرة بعد مرة، حتى يبعد عنا؛ وانح منه هذا النحو ما استطعت: فإنى

(١) لَجَّ: تمادي.
(٢) جدد الأرض: الأرض المستوية.
(٣) ويح: ويل.
(٤) الآفل: الذاهب.
(٥) كلومه: جراحاته.
(٦) قرحت: تقيحت.
(٧) الفاقة: العوز والحاجة.
(٨) النوائب: المصائب.

أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة، وأنجو بها.

ففعل الغراب والظبى ما أمرهما به الجرذ، وتبعهما القانص، فاستجره الظبى، حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة؛ والجرذ مقبل على قطع الحبائل، حتى قطعها، ونجا بالسلحفاة، وعاد القانص مجهودا لاغبا[١] فوجد حبالته مقطعة، ففكر فى أمره مع الظبى المتظالع[٢]، فظن أنه خولط فى عقله[٣]، وفكر فى أمره مع الظبى والغراب الذى كأنه يأكل منه، وقرض حبالته، فاستوحش من الأرض وقال: هذه أرض جن أو سحرة. فرجع موليا لا يلتمس شيئا، ولا يلتفت إليه، واجتمع الغراب والظبى والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة[٤] مرة بعد أخرى بمودته وخلوصها، وثبات قلبه عليها، واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض؛ فالإنسان الذى قد أعطى العقل والفهم. وألهم الخير والشر، ومنح التمييز والمعرفة، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد. فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم فى الصحبة.

(انتهى باب الحمامة المطوقة)

❋ ❋ ❋

(١) لاغبا: متعبا.

(٢) المتظالع: المتظاهر بالظلَع وهو مشي شبيه بالعرج.

(٣) خولط في عقله: حدث له خلل في عقله.

(٤) مرابط الهلكة: مجامع الهلكة.

الباب الثامن

البـــوم والغـــربـــان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت مثل إخوان الصفاء وتعاونهم، فاضرب لى مثل العدو الذى لا ينبغى أن يُغتر به، وإن أظهر تضرعا[١] وملقا[٢].

قال الفيلسوف: من اغتر بالعدو الذى لم يزل عدوا، أصابه ما أصاب البوم من الغربان.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان فى جبل من الجبال شجرة من شجر الدَّوْح[٣]، فيها وكر ألف غراب، وعليهن وال[٤] من أنفسهن؛ وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة. وعليهن وال منهن.

فخرج ملك البوم لبعض غدواته وروحاته؛ وفى نفسه العداوة لملك الغربان؛ وفى نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم.

فأغار[٥] ملك البوم فى أصحابه على الغربان فى أوكارها، فقتل وسبى[٦] منها خلقا كثيرا، وكانت الغارة ليلا؛ فلما أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له:

قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منا إلا من أصبح قتيلا أو جريحا أو مكسور الجناح أو منتوف الريش أو مقطوف الذنب وأشد مما أصابنا ضرا علينا جراءتهن علينا، وعلمهن بمكاننا، وهن عائدات إلينا غير منقطعات عنا. لعلمهن

---

(١) تضرعًا: تذللًا وخضوعًا.

(٢) ملقًا: تودد بكلام لطيف وتضرع فوق ما ينبغي.

(٣) الدوح: الشجر الكبير.

(٤) وال: حاكم.

(٥) أغار: هجم.

(٦) سبى: أسر.

بمكاننا: فإنما نحن لك، ولك الرأى، أيها الملك، فانظر لنا ولنفسك.

وكان فى الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأى، يسند إليهن فى الأمور، ويلقى عليهن أزمة الأحوال. وكان الملك كثيرا ما يشاورهن فى الأمور، ويأخذ آراءهن فى الحوادث والنوازل[١].

فقال الملك للأول من الخمسة: ما رأيك فى هذا الأمر؟

قال: رأيى قد سبقتنا إليه العلماء، وذلك أنهم قالوا: ليس للعدو الحنق[٢] إلا الهرب منه.

قال الملك للثانى: ما رأيك أنت فى هذا الأمر؟

قال: رأيى ما رأى هذا من الهرب.

قال الملك: لا أرى لكما ذلك رأيا، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة[٣] أصابتنا منه، ولا ينبغى لنا ذلك؛ ولكن نجمع أمرنا، ونستعد لعدونا، ونذكى[٤] نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا، ونحترس من الغرة[٥] إذا أقبل إلينا، فنلقاه مستعدين، ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه، ولا مقصرين عنه، وتلقى أطرافُنا أطرافَ العدو، ونتحرز بحصوننا، وندافع عدونا: بالأناة[٦] مرة، وبالجلاد[٧] أخرى، حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا، وقد ثنينا عدونا[٨] عنا.

---

(١) النوازل: المصائب.

(٢) الحنق: المغتاظ، الغاضب.

(٣) نكبة: مصيبة ومحنة.

(٤) نذكي: نشعل.

(٥) الغرة: الغفلة.

(٦) الأناة: التمهل.

(٧) الجلاد: القتال والمضاربة.

(٨) ثنينا عدونا: أبعدنا عدونا.

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟

قال: ما أرى ما قالا رأيا. ولكن نبث العيون[١]، ونبعث الجواسيس، ونرسل الطلائع بيننا وبين عدونا؛ فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية؟ فإن رأينا أمره أمر طامع فى مال، لم نكره الصلح على خراج[٢] نؤديه إليه فى كل سنة، ندفع به عن أنفسنا. ونطمئن فى أوطاننا: فإن من آراء الملوك إذا اشتدت شوكة عدوهم، فخافوه على أنفسهم وبلادهم؛ أن يجعلوا الأموال جُنة[٣] البلاد والملك والرعية.

قال الملك للرابع: فما رأيك فى هذا الصلح؟

قال لا أراه رأيا؛ بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من أن نضيع أحسابنا ونخضع للعدو الذى نحن أشرف منه؛ مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا إلا بالشطط[٤]. ويقال فى الأمثال: قارب عدوك بعض المقاربة: لتنال حاجتك. ولا تقاربه كل المقاربة: فيجترئ عليك، ويضعف جندك، وتذل نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة فى الشمس: إذا أملتها قليلا زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحد فى إمالتها نقص الظل. وليس عدونا راضيا منا بالدون فى المقاربة. فالرأى لنا ولك المحاربة.

قال الملك للخامس: ما تقول أنت؟ وماذا ترى: القتال أم الصلح أم الجلاء[٥] عن الوطن؟

قال: أما القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لا يقوى عليه، وقد يقال: إنه من لا

---

(١) نبث العيون: نبعث من يراقب الأمور.

(٢) خراج: مال أو نحوه يتم أداؤه كل سنة.

(٣) جُنَّة: وقاء.

(٤) الشطط: الإمعان في مجاوزة الحد.

(٥) الجلاء: الرحيل والهجرة.

يعرف نفسه وعدوه، وقاتل من لا يقوى عليه، حمل نفسه على حتفها[١]؛ مع أن العاقل لا يستصغر عدوا: فإن من استصغر عدوه اغتر به، ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه. وأنا للبوم شديد الهيبة، وإن أضربن[٢] عن قتالنا، وقد كنت أهابها قبل ذلك، فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال، فإن كان بعيدا لم يأمن سطوته[٣]، وإن كان مكثبا[٤] لم يأمن وثبته، وإن كان وحيدا لم يأمن مكره. وأحزم الأقوام وأكيسهم من كره القتال لأجل النفقة فيه: فإن ما دون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل؛ والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان. فلا يكونن القتال للبوم من رأيك، أيها الملك: فإن من قاتل من لا يقوى عليه فقد غرر بنفسه[٥]. فإذا كان الملك محصنا للأسرار، متخيرا للوزراء، مهيبا فى أعين الناس، بعيدا من أن يقدر عليه، كان خليقا ألا يسلب صحيح ما أوتى من الخير. وأنت، أيها الملك، كذلك. وقد استشرتنى فى أمر جوابك لك عنه، فى بعضه علانية، وفى بعضه سر وللأسرار منازل: منها ما يدخل فيه الرجلان. ولست أرى لهذا السر على قدر منزلته أن يشارك فيه إلا أربع آذان ولسانان.

فنهض الملك من ساعته، وخلا به، فاستشاره، فكان أول ما سأله عنه الملك أنه قال: هل تعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم؟ قال: نعم: كلمه تكلم بها غراب. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الكراكى[٦] لم يكن لها ملك، فأجمعت أمرها على أن يملكن عليهن ملك البوم؛ فبينما هى فى مجمعها إذ وقع لها غراب، فقالت:

---

(١) حتفها: هلاكها.

(٢) أضرب: امتنع.

(٣) سطوته: هيمنته.

(٤) مكثبًا: قريبًا.

(٥) غرر بنفسه: عرضها للهلاك.

(٦) الكركي: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين أبتر الذيل، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحيانا.

لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه فى أمرنا؛ فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب. فاستشرنه.

فقال: لو أن الطير بادت[1] من الأقاليم، وفقد الطاوس والبط والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن إلى أن تملكن عليكن البوم التى هى أقبح الطير منظرا، وأسوؤها خلقا، وأقلها عقلا، وأشدها غضبا، وأبعدها من كل رحمة؛ مع عماها وما بها من العشا[2] بالنهار؛ وأشد من ذلك وأقبح أمورها سفهها وسوء أخلاقها، إلا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن؛ كما فعلت الأرنب التى زعمت أن القمر ملكها، ثم عملت برأيها.

قال الطير: وكيف كان ذلك؟

* مثل ملك الفيلة ورسول الأرانب

قال الغراب: زعموا أن أرضا من أراضى الفيلة تتابعت عليها السنون، (القحط) وأجدبت، وقلَّ ماؤها، وغارت عيونها، وذوى[3] نبتها، ويبس[4] شجرها؛ فأصاب الفيلة عطش شديد: فشكون ذلك إلى ملكهن؛ فأرسل الملك رسله ورواده فى طلب الماء؛ فى كل ناحية. فرجع إليه بعض الرسل، فأخبره إنى قد وجدت بمكان كذا عينا يقال لها عين القمر، كثيرة الماء. فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته. وكانت العين فى أرض للأرانب؛ فوطئن الأرانب فى أجحارهن، فأهلكن منهن كثيرا. فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له: قد علمت ما أصابنا من الفيلة فقال: ليحضر منكن كل ذى رأى رأيه. فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها فيروز.

---

(١) بادت: فنيت.

(٢) العشا: ضعف البصر.

(٣) ذوى: ذبل.

(٤) يبس: جف.

وكان الملك يعرفها بحسن الرأى والأدب.

فقالت: إن رأى الملك أن يبعثنى إلى الفيلة ويرسل معى أمينا، ليرى ويسمع ما أقول، ويرفعه إلى الملك.

فقال لها الملك: أنت أمينة، ونرضى بقولك؛ فانطلقى إلى الفيلة، وبلغى عنى ما تريدين، واعلمى أن الرسول برأيه وعقله، ولينه وفضله، يخبر عن عقل المرسل. فعليك باللين والرفق، والحلم والتأنى: فإن الرسول هو الذى يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق[١]. ثم إن الأرنب انطلقت فى ليلة قمراء، حتى انتهت إلى الفيلة، وكرهت أن تدنوَ منهن: مخافة أن يطأنها بأرجلهن، فيقتلنها، وإن كن غير متعمدات. ثم أشرفت على الجبل، ونادت ملك الفيلة، وقالت له:

إن القمر أرسلنى إليك؛ والرسول غير ملوم فيما يبلغ، وإن أغلظ فى القول.

قال ملك الفيلة: فما الرسالة؟

قالت: يقول لك: إن من عرف فضل قوته على الضعفاء، فاغتر بذلك فى شأن الأقوياء، قياسا لهم على الضعفاء، كانت قوته وبالا عليه. وأنت قد عرفت فضل قوتك على الدواب، فغرك ذلك؛ فعمدت إلى العين التى تسمى باسمى، فشربت منها، وكدرتها[٢]. فأرسلنى إليك: فأنذرك ألا تعود إلى مثل ذلك. وإنك إن فعلت أُغِشُّ بصرك[٣]، وأتلف نفسك. وإن كنت فى شك من رسالتى، فهلم[٤] إلى العين من ساعتك: فإنى موافيك بها. فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب، فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول. فلما نظر إليها، رأى ضوء القمر فيها. فقالت له فيروز الرسول:

---

(١) الخرق: الجهل والحمق.

(٢) كدرتها: جعلها كدرة، أي جعلها شائبة وغير صافية.

(٣) أُغشُّ بصرك: أُصيبُك بالعمى.

(٤) هلم: هيا.

خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك، واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطومه فى الماء، فتحرك فخيل للفيل أن القمر ارتعد.

فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب من إدخالى الخرطوم فى الماء؟

قالت فيروز الأرنب: نعم. فسجد الفيل للقمر مرة أخرى، وتاب إليه مما صنع، وشرط ألا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته.

قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر البوم إن فيها الخب (الخداع) والمكر والخديعة، وشر الملوك المخادع؛ ومن ابتلى بسلطان مخادع؛ وخدمه، أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد[1] حين احتكما إلى السنور[2]. قالت الكراكى: وكيف كان ذلك؟ قال الغراب:

كان لى جار من الصفاردة، فى أصل شجرة قريبة من وكرى، وكان يكثر مواصلتى؛ ثم فقدته، فلم أعلم أين غاب؛ وطالت غيبته عنى. فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد، فسكنته، فكرهت أن أخاصم الأرنب، فلبثت فيه زمانا. ثم إن الصفرد عاد بعد زمان، فأتى منزله، فوجد فيه الأرنب.

فقال لها: هذا المكان لى، فانتقلى عنه.

قالت الأرنب: المسكن لى، وتحت يدى؛ وأنت مُدَّعٍ له، فإن كان لك حق فاستعد بإثباته علىّ.

قال الصفرد: القاضى منا قريب: فهلمى بنا إليه.

قالت الأرنب: ومن القاضى؟

قال الصفرد: إن بساحل البحر سنورا متعبدا، يصوم النهار، ويقوم الليل كله؛

(١) الصفرد: من أنواع الطيور مشهورة بالجبن.

(٢) السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم من أفضل مآكله الفئران ومنه أهلي وبري.

ولا يؤذى دابة، ولا يهريق دما؛ عيشه من الحشيش ومما يقذفه إليه البحر. فإن أحببت تحاكمنا إليه، ورضينا به.

قالت الأرنب: ما أرضانى به إذا كان كما وصفت! فانطلقا إليه، فتبعتهما لأنظر إلى حكومة[1] الصوام القوام، ثم إنهما ذهبا إليه، فلما بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه، انتصب قائما يصلى، وأظهر الخشوع والتنسك. فعجبا لما رأيا من حاله، ودنوَا منه هائبين له، وسلما عليه، وسألاه أن يقضى بينهما. فأمرهما أن يقصا عليه القصة، ففعلا.

فقال لهما: قد بلغنى الكبر[2]، وثقلت أذناى: فادنوا منى، فأسمعانى ما تقولان فدنوا منه، وأعادا عليه القصة، وسألاه الحكم.

فقال قد فهمت ما قلتما، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما: فأنا آمركما بتقوى الله وألا تطلبا إلا الحق: فإن طالب الحق هو الذى يفلح، وإن قُضى عليه؛ وطالب الباطل مخصوم؛ وإن قضى له. وليس لصاحب الدنيا من دنياه شىء، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه؛ فذو العقل حقيق أن يكون سعيه فى طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غدا؛ وأن يمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا: فإن منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر[3]، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر بمنزلة نفسه. ثم إن السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه، حتى أنسا إليه، وأقبلا عليه، ودنوا منه، ثم وثب عليهما فقتلهما.

قال الغراب: ثم إن البوم تجمع- مع ما وصفت لكنَّ من الشؤم- سائر العيوب: فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن. فلما سمع الكراكى ذلك من كلام الغراب أضربن

(١) حكومة: حكم.

(٢) الكبر: طول العمر.

(٣) المدر: الطين الجاف الذي كانت تبني منه البيوت.

عن تمليك البوم. وكان هناك بوم حاضر قد سمع ما قالوا، فقال للغراب:

لقد وترتنى[١] أعظم الترة، ولا أعلم أنه سلف منى إليك سوء أوجب هذا. وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر، فيعود ينبت؛ والسيف يقطع اللحم، ثم يعود فيندمل؛ واللسان لا يندمل جرحه ولا توسى مقاطعه[٢]، والنصل[٣] من السهم يغيب فى اللحم، ثم ينزع فيخرج؛ وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تُنزع ولم تستخرج. ولكل حريق مطفئ: فللنار الماء، وللسم الدواء، وللحزن الصبر؛ ونار الحقد لا تخبو[٤] أبدا. وقد غرستم، معاشر الغربان، بيننا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء.

فلما قضى البوم مقالته، ولى مغضبا، فأخبر ملك البوم بما جرى وبكل ما كان من قول الغراب؛ ثم إن الغراب ندم على ما فرط منه، وقال:

والله لقد خرقت فى قولى[٥] الذى جلبت به العداوة والبغضاء على نفسى وقومى! وليتنى لم أخبر الكراكى بهذه الحال! ولا أعلمتها بهذا الأمر! ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت، وعلم أضعاف ما علمت، فمنعها من الكلام بمثل ما تكلمت اتقاء ما لم أتقِ، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب، لاسيما إن كان الكلام أفظع كلام، يلقى منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد والضغينة، فلا ينبغى لأشباه هذا الكلام أن تسمى كلاما، ولكن سهاما. والعاقل، وإن كان واثقا بقوته وفضله، لا ينبغى أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالا على ما عنده من الرأى

(١) وترتني: ظلمتني وأصابتني إصابة عظيمة.
(٢) لا تؤاسى مقاطعه: لا تداوي مقاطعه.
(٣) النصل: حديدة الرمح أو السهم أو السكين.
(٤) تخبو: تهدأ وتخمد.
(٥) خرقت في قولي: ضعفت في قولي.

والقوة؛ كما أنه وإن كان عنده الترياق[1] لا ينبغى له أن يشرب السم اتكالا على ما عنده. وصاحب حسن العمل، وإن قصر به القول فى مستقبل الأمر، كان فضله بينا واضحا فى العاقبة والاختبار؛ وصاحب حسن القول، وإن أعجب الناس منه حسن صفته للأمور، لم تحمد عاقبة أمره. وأنا صاحب القول الذى لا عاقبة له محمودة. أليس من سفهى اجترائى على التكلم فى الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدا، ولم أعمل فيه رأيا؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والروية، لم يغتبط بمواقع رأيه. فما كان أغنانى عما كسبت يومى هذا، وما وقعت فيه من الهم! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب. فهذا ما سألتنى عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم. وأما القتال فقد علمت رأيى فيه، وكراهتى له؛ ولكن عندى من الرأى والحيلة غير القتال ما يكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى: فإنه رب[2] قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا. ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك، وأخذوا عريضه[3].

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن ناسكا اشترى عريضا ضخما ليجعله قربانا[4]؛ فانطلق به يقوده. فبصر به من المكرة، فأتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك. فعرض له أحدهم فقال له:

أيها الناسك، ما هذا الكلب الذى معك؟

ثم عرض له الآخر فقال لصاحبه: ما هذا ناسك؛ لأن الناسك لا يقود كلبا.

---

(١) الترياق: ما يمنع امتصاص السم في المعدة والأمعاء.

(٢) رُبَّ: أداة تفيد احتمال الوقوع.

(٣) الغريض: الطري من اللحم والثمر ونحو ذلك.

(٤) أي: اشترى معزا لم يتجاوز العام ليتقرب به إلي ربه.

فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشك أن الذى يقوده كلب؛ وأن الذى باعه إياه سحر عينه، فأطلقه من يده؛ فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة. وإنى أريد من الملك أن ينقرنى[1] على رءوس الأشهاد، وينتف ريشى وذنبى؛ ثم يطرحنى فى أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا. فأرجو أنى أصبر وأطلع على أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم، فأخادعهم وآتى إليكم لنهجم عليهم، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى.

قال الملك: أتطيب نفسك لذلك؟

قال: نعم، وكيف لا تطيب نفسى لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر؛ ثم ارتحل عنه. فجعل الغراب يئن ويهمس[2] حتى رأته البوم وسمعته يئن؛ فأخبرن ملكهن بذلك، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان.

فلما دنا منه أمر بوما أن يسأله فقال له: من أنت؟ وأين الغربان؟

فقال: أما اسمى ففلان، وأما ما سألتنى عنه فإنى أحسبك ترى أن حالى حال من لا يعلم الأسرار.

فقيل لملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه؛ فنسأله بأى ذنب صنع به ما صنع؟ فسئل الغراب عن أمره فقال:

إن ملكنا استشار جماعتنا فيكن: وكنت يومئذ بمحضر من الأمر؛ فقال:

أيها الغربان، ما ترون فى ذلك؟

فقلت: أيها الملك لا طاقة لنا بقتال البوم: لأنهن أشد بطشا، وأحد قلبا منا. ولكن

(١) أي: يضربنى بمنقاره.

(٢) يئن ويهمس: يتوجع ويتألم بصوت منخفض.

أرى أن نلتمس الصلح؛ ثم نبذل الفدية فى ذلك؛ فإن قبلت البوم ذلك منا، وإلا هربنا فى البلاد. وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيرا لهن وشرا لنا، فالصلح أفضل من الخصومة. وأمرتهن بالرجوع عن الحرب؛ وضربت لهن الأمثال فى ذلك؛ وقلت لهن: إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له: ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معها حيث مالت. فعصيننى فى ذلك؛ وزعمن أنهن يردن القتال واتهمننى فيما قلت، وقلن: إنك قد مالأت البوم[1] علينا؛ ورددن قولى ونصيحتى، وعذبننى بهذا العذاب، وتركنى الملك وجنوده وارتحل ، ولا علم بهن بعد ذلك.

فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول فى الغراب؟ وما ترى فيه؟

قال: ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل: فإن هذا أفضل عدد[2] الغربان، وفى قتله لنا راحة من مكره، وفقده على الغربان شديد. ويقال: من ظفر بالساعة التى فيها ينجح العمل، ثم لا يعاجله بالذى ينبغى له، فليس بحكيم. ومن طلب الأمر الجسيم، فأمكنه ذلك فأغفله. فاته الأمر؛ وهو خليق ألا تعود له الفرصة ثانية، ومن وجد عدوه ضعيفا ولم ينجز قتله، ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه.

قال الملك لوزير آخر: ما ترى أنت فى هذا الغراب؟

قال: أرى ألا تقتله: فإن العدو الذليل الذى لا ناصر له أهل لأن يستبقَى ويرحم ويصفح عنه، لا سيما المستجير الخائف: فإنه أهل لأن يؤمَّن[3].

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه: ما تقول فى الغراب؟

---

(١) أي: ساعدت البوم.

(٢) عدد: من القلة في المعدودين الذين يؤخذ برأيهم في الملمات..

(٣) يؤمن: يشعر بالأمان والطمأنينة.

قال: أرى أن تستبقيه وتحسن إليه: فإنه خليق أن ينصحك. والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضا ظفرا حسنا؛ ويرى اشتغال بعض الأعداء ببعض خلاصا لنفسه منهم، ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه.

قال الملك له: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكا أصاب من رجل بقرة حلوبا، فانطلق بها يقودها إلى منزله، فعرض له لص أراد سرقتها، واتبعه شيطان يريد اختطافه.

فقال الشيطان للص: من أنت؟

قال: أنا اللص، أريد أن أسرق هذه البقرة من الناسك إذا نام. فمن أنت؟

قال: أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهب به.

فانتهيا على هذا إلى المنزل، فدخل الناسك منزله، ودخلا خلفه، وأدخل البقرة فربطها فى زاوية المنزل، وتعشى ونام. فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه، واختلفا على من يبدأ بشغله أولا، فقال الشيطان للص: إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح، واجتمع الناس: فلا أقدر على أخذه. فأنظرنى ريثما آخذه[1]، وشأنك وما تريد.

فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ، فلا يقدر على أخذ البقرة، فقال: لا، بل أنظرنى أنت حتى آخذ البقرة، وشأنك وما تريد.

فلم يزالا فى المجادلة هكذا، حتى نادى اللص: أيها الناسك انتبه: فهذا الشيطان يريد اختطافك.

ونادى الشيطان: أيها الناسك انتبه: فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك.

فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما، وهرب الخبيثان.

قال الوزير الأول الذى أشار بقتل الغراب: أظن أن الغراب قد خدعكن، ووقع

(١) أي: أمهلني حتى آخذه.

كلامه فى نفس الغبى منكن موقعه؛ فتردن أن تضعن الرأى فى غير موضعه. فمهلا مهلا أيها الملك عن هذا الرأى. فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر بالغراب أن يحمل إلى منازل البوم، ويكرم ويستوصى به خيرا.

ثم إن الغراب قال للملك يوما، وعنده جماعة من البوم، وفيهن الوزير الذى أشار بقتله: أيها الملك، قد علمت ما جرى عليَّ من الغربان؛ وأنه لا يستريح قلبى دون أخذى بثأرى منهن؛ وإنى قد نظرت فى ذلك، فإذا بى لا أقدر على ما رمت: لأنى غراب. وقد روى عن العلماء أنهم قالوا: من طابت نفسه بأن يحرقها، فقد قرب لله أعظم القربان. لا يدعو عند ذلك بدعوة إلا استجيب له[1]. فإن رأى الملك أن يأمرنى فأحرق نفسى، وأدعو ربى أن يحولنى بوما، فأكون أشد عداوة وأقوى بأسا على الغربان، لعلى أنتقم منهن!

قال الوزير الذى أشار بقتله: ما أشبهك فى خير ما تظهر وشر ما تخفى إلا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السم. أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيرة! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويتك؟ كالفأرة التى خيرت فى الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ.

قيل له: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أنه كان ناسك مستجاب الدعوة، فبينما هو ذات يوم جالس على ساحل البحر إذ مرت به حدأة فى رجلها درص[2] فأرة. فوقعت منها عند الناسك، وأدركته لها رحمة، فأخذها ولفها فى ورقة، وذهب بها إلى منزله؛ ثم خاف أن تشق

(١) وهذا اعتقاد باطل من عقائد بعض الهنود.

(٢) درص: ولد الفأرة.

على أهله تربيتها، فدعا ربه أن يحولها جارية: فتحولت جارية حسناء. فانطلق بها إلى امرأته، فقال لها:

هذه ابنتى، فاصنعى معها صنيعك بولدى. فلما كبرت قال لها الناسك:

يا بنية اختارى من أحببت حتى أزوجك به.

فقالت: أما إذا خيرتنى فإنى أختار زوجا يكون أقوى الأشياء.

فقال الناسك لعلك تريدين الشمس!

ثم انطلق إلى الشمس فقال:

أيها الخلق العظيم، لى جارية، وقد طلبت زوجا يكون أقوى الأشياء، فهل أنت متزوجها؟

فقالت الشمس: أنا أدلك على من أقوى منى: السحاب الذى يغطينى، ويرد حر شعاعى، ويكسف أشعة أنوارى.

فذهب الناسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس.

فقال السحاب: وأنا أدلك على من هو أقوى منى: فاذهب إلى الريح التى تقبل بى وتدبر[1]، وتذهب بى شرقا وغربا.

فجاء الناسك إلى الريح فقال لها كقوله للسحاب.

فقالت: وأنا أدلك على من هو أقوى منى، وهو الجبل الذى لا أقدر على تحريكه.

فمضى إلى الجبل فقال له القول المذكور.

فأجابه الجبل وقال له: أنا أدلك على من هو أقوى منى: الجرذ الذى لا أستطيع الامتناع منه إذا ثقبنى، واتخذنى مسكنا.

(١) أي: تأتي بي وتذهب.

فانطلق الناسك إلى الجرذ فقال له: هل أنت متزوج هذه الجارية؟

فقال: وكيف أتزوجها وجحرى ضيق؟ وإنما يتزوج الجرذ الفأرة.

فدعا الناسك ربه أن يحولها فأرة كما كانت وذلك برضا الجارية؛ فأعادها الله إلى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ.

فهذا مثلك: أيها المخادع.

فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول، ورفق بالغراب، ولم يزدد له إلا إكراما، حتى إذا طاب عيشه، ونبت ريشه؛ واطلع على ما أراد أن يطلع عليه، راغ روغة[1]، فأتى أصحابه بما رأى وسمع.

فقال للملك: إنى قد فرغت مما كنت أريد، ولم يبق إلا أن تسمع وتطيع، قال له: أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف شئت.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا، فى جبل كثير الحطب، وفى ذلك الموضع قطيع من الغنم، مع رجل راع؛ ونحن مصيبون هناك نارا، ونلقيها فى أنقاب البوم[2]، ونقذف عليها من يابس الحطب، ونتراوح عليها ضربا بأجنحتنا، حتى تضطرم النار فى الحطب: فمن خرج منهن احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه.

ففعل الغربان ذلك: فأهلكن البوم قاطبة[3]، ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات.

ثم إن ملك الغربان قال لذلك الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم، ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار.

فقال الغراب: إن ما قلته، أيها الملك لكذلك. ولكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع

---

(١) راغ روغة: مكر مكرًا.

(٢) أنقاب البوم: مساكن البوم وطرقهم.

(٣) قاطبة: جميعهم.

العظيم الذى يخاف من تحمله الجائحة[1] على نفسه وقومه، لم يجزع من شدة الصبر عليه، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة وكثير الخير فلم يجد لذلك ألما، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه، حتى يبلغ حاجته. فيغتبط بخاتمة أمره، وعاقبة صبره.

فقال الملك: أخبرنى عن عقول البوم.

قال الغراب: لم أجد فيهن عاقلا إلا الذى كان يحثهن[2] على قتلى، وكان حرضهن على ذلك مرارا، فكنَّ أضعف شىء رأيا! فلم ينظرن فى أمرى، ويذكرن أنى قد كنت ذا منزلة فى الغربان، وأنى أعد من ذوى الرأى، ولم يتخوفن مكرى وحيلتى، ولا قبلن من الناصح الشفيق، ولا أخفين دونى أسرارهن. وقد قال العلماء: ينبغى للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة، ولا يطلع أحدا منهم على مواضع سره.

فقال الملك: ما أهلك البوم فى نفسى إلا البغى، وضعف رأى الملك، وموافقته وزراء السوء.

قال الغراب: صدقت أيها الملك، إنه قل ما ظفر أحد بغنى ولم يطغ، وقل من أكثر من الطعام إلا مرض. وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع فى المهالك.

وكان يقال: لا يطمعن ذو الكبر فى حسن الثناء، ولا الخب (المخادع) فى كثرة الصديق، ولا السىء الأدب فى الشرف، ولا الشحيح فى البر، ولا الحريص فى قلة الذنوب، ولا الملك المختال، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء فى ثبات ملكه، وصلاح رعيته.

قال الملك: لقد احتملت مشقة شديدة فى تصنعك للبوم، وتضرعك لهن.

---

(١) الجائحة: المصيبة المهلكة.

(٢) يحثهن: يحرضهن.

قال الغراب: إنه من احتمل مشقة يرجو نفعها، ونحىَّ[1] عن نفسه الأنفة والحمية، ووطنها على الصبر حمد غب رأيه[2]؛ كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره، وشبع بذلك وعاش.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن أسود من الحيات كبر، وضعف بصره. وذهبت قوته: فلم يستطع صيدا ولم يقدر على طعام؛ وأنه انساب يلتمس شيئا يعيش به، حتى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع، قد كان يأتيها قبل ذلك، فيصيب من ضفادعها رزقه، فرمى نفسه قريبا منهن مظهرا للكآبة والحزن.

فقال له ضفدع: ما لى أراك، أيها الأسود، كئيبا حزينا؟

قال: ومن أحرى بطول الحزن منى! وإنما كان أكثر معيشتى مما كنت أصيب من الضفادع، فابتليت ببلاء، وحرِّمت علىَّ الضفادع من أجله؛ حتى إنى إذا التقيت ببعضها، لا أقدر على إمساكه.

فانطلق الضفدع إلى ملك الضفادع، فبشره بما سمع من الأسود.

فأتى ملك الضفادع إلى الأسود. فقال له:

كيف كان أمرك؟

قال: سعيت منذ أيام فى طلب ضفدع. وذلك عند المساء؛ فاضطررته[3] إلى بيت ناسك، ودخلت فى أثره فى الظلمة وفى البيت ابن للناسك، فأصبت إصبعه؛ فظننت أنها الضفدع؛ فلدغته فمات. فخرجت هاربا، فتبعنى الناسك فى أثرى، ودعا على، ولعننى. وقال: كما قتلت ابنى البرىء ظلما وتعديا، أدعو عليك أن تذل وتصير مركبا

(١) نحى: أبعد.

(٢) غب رأيه: عاقبة رأيه.

(٣) اضطررته: أجبرته.

لملك الضفادع، فلا تستطيع أخذها، ولا أكل شيء منها، إلا ما يتصدق به عليك ملكها. فأتيت إليك لتركبنى، مقرا بذلك، راضيا به.

فرغب ملك الضفادع فى ركوب الأسود، وظن أن ذلك فخر له وشرف، ورفعة، فركبه واستطاب ذلك.

فقال له الأسود، قد علمت أيها الملك أنى محروم، فاجعل لى رزقا أعيش به.

قال ملك الضفادع: لعمرى لابد لك من رزق يقوم بك، إذ كنت مركبى.

فأمر له بضفدعين يؤخذان فى كل يوم، ويدفعان إليه. فعاش بذلك، ولم يضره خضوعه للعدو الذليل؛ بل انتفع بذلك، وصار له رزقا ومعيشة.

وكذلك كان صبرى على ما صبرت عليه، التماسا لهذا النفع العظيم الذى اجتمع لنا فيه الأمن والظفر، وهلاك العدو والراحة منه. ووجدت صرعة اللين[1] والرفق أسرع وأشد استئصالا للعدو من صرعة المكابرة: فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها. والماء ببرده ولينه يستأصل ما تحت الأرض منها. ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدَّيْن.

قال الغراب: وكل ذلك كان من رأى الملك وأدبه وسعادة جده.

وإنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمرا ظفر به منهما أفضلهما مروءة. فإن اعتدلا فى المروءة، فأشدهما عزما. فإن استويا فى العزم، فأسعدهما جَدّاً.

وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب[2] المتضرع الذى لا تبطره السراء[3]، ولا تدهشه الضراء، كان هو داعى الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك، أيها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا، والمعاجلة

(١) صرعة اللين: طريقة اللين.

(٢) الأريب: الماهر ذو الدهاء والفطنة.

(٣) لا تبطره السراء: لا يستخف بالنعمة ويكفر بها.

والأناة؛ الناظر فى أمر يومه وغده، وعواقب أعماله.

قال الملك للغراب: بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك، فإن رأى الرجل الواحد، العاقل الحازم، أبلغ فى هلاك العدو من الجنود الكثيرة، من ذوى البأس والنجدة، والعدد والعدة. وإن من عجيب أمرك عندى طول لبثك بين ظهرانى البوم تسمع الكلام الغليظ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة!

قال الغراب: لم أزل متمسكا بأدبك، أيها الملك: أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمبالغة والمواتاة[١].

قال الملك: أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل: ليس لها عاقبة حميدة فقد منَّ الله علينا بك منة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام ولا الشراب، ولا النوم ولا القرار.

وكان يقال: لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ[٢]؛ ولا الرجل الشره الذى قد أطمعه سلطانه فى مال وعمل فى يده، حتى ينجزه له؛ ولا الرجل الذى قد ألح عليه عدوه، وهو يخافه صباحا ومساء حتى يستريح منه قلبه. ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه، ومن أمن عدوه ثلج صدره[٣].

قال الغراب: أسأل الله الذى أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل فى ذلك صلاح رعيتك، ويشركهم فى قرة العين بملكك! فإن الملك إذا لم يكن فى ملكه قرة عيون رعيته، فمثله مثل زنمة العنز[٤] التى يمصها، وهو يحسبها حلمة الضرع، فلا يصادف فيها خيرا.

قال الملك: أيها الوزير الصالح، كيف كانت سيرة البوم وملكها فى حروبها، وفيما

(١) المؤاتاة: اللطف.

(٢) يبرأ: يشفى ويصح.

(٣) ثلج صدره: ارتاح صدره واطمأن.

(٤) زنمة العنز: قطعة اللحم التي تتدلى من عنق العنز.

كانت فيه من أمورها؟

قال الغراب: كانت سيرته سيرة بطر، وأشر وخيلاء[١]، وعجز، وفخر، مع ما فيه من الصفات الذميمة. وكل أصحابه ووزرائه شبيه به، إلا الوزير الذى كان يشير عليه بقتلى: فإنه كان حكيما أريبا، فيلسوفا حازما عالما، قلما يُرى مثله فى علو الهمة، وكمال العقل، وجودة الرأى.

قال الملك: وأى خصلة رأيت منه كانت أدل على عقله؟

قال خلتان: إحداهما رأيه فى قتلى، والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحته، وإن استقلها؛ ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة، ولكنه كلام رفق ولين حتى إنه ربما أخبره ببعض عيوبه، ولا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الأمثال، ويحدثه بعيب غيره، فيعرف عيبه. فلا يجد ملكه إلى الغضب عليه سبيلا.

وكان مما سمعته يقول لملكه: إنه لا ينبغى للملك أن يغفل عن أمره، فإنه أمر جسيم، لا يظفر به من الناس إلا قليل، ولا يدرك إلا بالحزم؛ فإن الملك عزيز، فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه، فإنه قد قيل: إنه فى قلة بقائه بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر[٢]؛ وهو فى خفة زواله، وسرعة إقباله وإدباره كالريح، وفى قلة ثباته كاللبيب مع اللئام؛ وفى سرعة اضمحلاله[٣] كحباب الماء[٤] من وقع المطر. فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغى أن يُغتر بهم؛ وإن هم أظهروا تودادا وتضرعا.

(انقضى باب البوم والغربان)

(١) أشر وخيلاء: بطر وزهو.

(٢) النيلفور: جنس نباتات مائية من الفصيلة النيلوفرية فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها ومن أنواعه اللوطس، أي عرائس النيل وتسمي: البشنين.

(٣) اضمحلاله: زواله.

(٤) حباب الماء: الفقاعات التي تطفو فوق الماء.

الباب التاسع

القرد والغيلم

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل الرجل الذى يطلب الحاجة، فإذا ظفر بها، أضاعها.

قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها، ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها، أصابه ما أصاب الغيلم[١]

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أن قردا يقال له ماهر، كان ملك القردة، وكان قد كبر وهرم، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة فتغلب عليه، وأخذ مكانه. فخرج هاربا على وجهه، حتى انتهى إلى الساحل، فوجد شجرة من شجر التين، فارتقى إليها وجعلها مقامه.

فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذ سقطت من يده تينة فى الماء، فسمع لها صوتا وإيقاعا، فجعل يأكل ويرمى فى الماء، فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين فى الماء، وثَم[٢] غيلم، كلما وقعت تينة أكلها. فلما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله، فرغب فى مصادقته، وأنس إليه، وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه. وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه، وشكت ذلك إلى جارة لها، وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله[٣].

فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قردا وألفه القرد: فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذى قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتى تحتالى لهلاك القرد.

قالت: وكيف أصنع؟.

---

(١) الغيلم: السلحفاة الذكر.

(٢) ثم: اسم يشار به إلي المكان البعيد بمعني هناك.

(٣) اغتاله: قتله وقضى عليه.

قالت جارتها: إذا وصل إليك فتمارضى، فإذا سألك عن حالك فقولى: إن الحكماء وصفوا لى قلب قرد.

ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلى منزله، فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة، فقال لها الغيلم: مالى أراك هكذا؟.

فأجابته جارتها، وقالت: إن زوجتك مريضة مسكينة. وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه.

قال الغيلم: هذا أمر عسير. من أين لنا قلب قرد، ونحن فى الماء؟ لكن سأحتال لصديقى.

ثم انطلق إلى ساحل البحر: فقال له القرد يا أخى، ما حبسك عنى؟

قال له الغيلم: ما حبسنى عنك إلا حيائى: فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك إلى؟ وأريد أن تتم إحسانك إلى بزيارتك لى فى منزلى: فإنى ساكن فى جزيرة طيبة الفاكهة. فاركب ظهرى لأسبح بك.

فرغب القرد فى ذلك، ونزل فركب ظهر الغيلم، فسبح به، حتى إذا سبح به، عرض له قبح ما أضمر فى نفسه من الغدر، فنكس رأسه.

فقال له القرد: ما لى أراك مهتما؟

قال الغيلم: إنما همى لأنى ذكرت أن زوجتى شديدة المرض، وذلك يمنعنى من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك.

قال القرد: إن الذى أعرف من حرصك على كرامتى يكفيك مؤونة التكلف.

قال الغيلم: أجل.

ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية: فساء ظن القرد وقال فى نفسه:

ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر! ولست آمنا أن يكون قلبه قد تغير لى،

وحال عن مودتى، فأراد بى سوءا فإنه لا شىء أخف وأسرع تقلبا من القلب. وقد يقال: ينبغى للعاقل ألا يغفل عن التماس ما فى نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه، عند كل أمر، وفى كل لحظة وكَلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال فإن ذلك كله يشهد على ما فى القلوب. وقد قالت العلماء إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه، وليتفقد ذلك فى لحظاته وحالاته. فإن كان ما يظن حقا ظفر بالسلامة، وإن كان باطلا ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك.

ثم قال للغيلم: ما الذى يحبسك؟ ومالى أراك مهتما، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمنى أنك تأتى منزلى فلا تجد أمرى كما أحب: لأن زوجتى مريضة.

قال القرد: لا تهتم، فإن الهم لا يغنى عنك شيئا. ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية: فإنه يقال ليبذل ذو المال ماله فى أربعة مواضع: فى الصدقة، وفى وقت الحاجة، وعلى البنين، وعلى الأزواج.

قال الغيلم: صدقت. وقد قالت الأطباء: إنه لا دواء لها إلا قلب قرد.

فقال القرد فى نفسه: وا أسفاه! لقد أدركنى الحرص والشره على كبر سنى: حتى وقعت فى شر ورطة! ولقد صدق الذى قال: يعيش القانع الراضى مستريحا مطمئنا، وذو الحرص والشره يعيش ما عاش فى تعب ونصب. وإنى قد احتجت الآن إلى عقلى فى التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال للغيلم: وما منعك أن تعلمنى عند منزلى، حتى كنت أحمل قلبى معى؟ فهذه سُنة فينا، معاشر القردة، إذا خرج أحدنا لزيارة صديق، خلف[1] قلبه عند أهله، أو فى موضعه، لننظر إذا نظرنا إلى حرم المزور[2] وليس قلوبنا معنا.

قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟

(١) خلف: ترك.

(٢) حرم المزور: نساء صاحب البيت.

قال: خلفته فى الشجرة. فإن شئت فارجع بى إلى الشجرة، حتى آتيك به.

ففرح الغيلم بذلك. وقال: لقد وافقنى صاحبى بدون أن أغدر به. ثم رجع بالقرد إلى مكانه. فلما قارب الساحل، وثب عن ظهره، فارتقى الشجرة.

فلما أبطأ على الغيلم، ناداه: يا خليلى، احمل قلبك وانزل، فقد حبستنى.

فقال القرد: هيهات![1] أتظن أنى كالحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان:

قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟

قال القرد: زعموا أنه كان أسد فى أجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب، وضعف شديد، وجهد، فلم يستطع الصيد.

فقال له ابن آوى: ما بالك، يا سيد السباع، قد تغيرت أحوالك؟

قال: هذا الجَرَب الذى قد أجهدنى، وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه.

قال ابن آوى: ما أيسر هذا! وقد عرفت بمكان كذا حمارا مع قصار[2] يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به، ثم دلف[3] إلى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له:

مالى أراك مهزولا؟

قال ما يطعمنى صاحبى شيئا.

فقال له: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟

قال: فما لى حيلة فى الهرب منه، لست أتوجه إلى جهة إلا أضر بى إنسان فكدنى وأجاعنى.

---

(١) هيهات: بَعُدَ وقوع ذلك.

(٢) قصار: الذي يقوم بتبييض الثياب.

(٣) دلف: تقدم.

قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس، لا يمر به إنسان، خصيب المرعى، فيه قطيع من الحمر لم تر عين مثلها حسنا وسمنا.

قال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها.

فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن آوى، ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار. فخرج إليه وأراد أن يثب عليه، فلم يستطع لضعفه، وتخلص الحمار منه، فأفلت هلعا[1] على وجهه.

فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار، قال له:

أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية؟

فقال له: إن جئتنى به مرة أخرى، فلن ينجوَ منى أبدا.

فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له:

ما الذى جرى عليك؟ إن أحد الحمر رآك غريبا، فخرج يتلقاك مرحبا بك، ولو ثبت له لآنسك، ومضى بك إلى أصحابه.

فلما سمع الحمار كلام ابن آوى، ولم يكن رأى أسدا قط، صدقه، وأخذ طريقه إلى الأسد، فسبقه ابن آوى إلى الأسد، وأعلمه بمكانه.

وقال له: استعد له، فقد خدعته لك: فلا يدركنك الضعف فى هذه النوبة: فإنه إن أفلت فلن يعود معى أبدا. فجاش[2] جأش الأسد لتحريض ابن آوى له، وخرج إلى موضع الحمار. فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها.

ثم قال: قد ذكرت الأطباء أنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور: فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوى ذلك قوتا لك.

---

(١) هلعًا: خوفًا وفزعًا.

(٢) جاش: هاج.

فلما ذهب الأسد ليغتسل، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه، رجاء أن يتطير الأسد منه، فلا يأكل منه شيئا.

ثم إن الأسد رجع إلى مكانه، فقال لابن آوى:

أين قلب الحمار وأذناه؟

قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به، وأذنان يسمع بهما، لم يرجع إليك بعدما أفلت ونجا من الهلكة.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنى لست كذلك الحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليَّ، وخدعتنى، فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت فارط أمرى. وقد قيل: إن الذى يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم.

قال الغيلم: صدقت، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته، وإذا أذنب ذنبا لم يستح أن يؤدب: لصدقه فى قوله وفعله، وإن وقع فى ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله: كالرجل الذى يعثر على الأرض، ثم ينهض عليها معتمدا. فهذا الرجل الذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها.

(انقضى باب القرد والغيلم)

الباب العاشر

النـــاسك وابن عـــــرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل. فاضرب لى مثل الرجل العجلان[١] فى أمره، من غير روية[٢] ولا نظر فى العواقب.

قال الفيلسوف: إنه من لم يكن فى أمره متثبتا، لم يزل نادما، ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس[٣]. وقد كان له ودودا.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكا من النساك كان بأرض جرجان[٤] وكانت له امرأة جميلة، فمكثا زمانا لم يرزقا ولدا، ثم حملت منه بعد الإياس[٥].

فسُرت المرأة وسر الناسك بذلك، فحمد الله تعالى، وسأله أن يكون الحمل ذكرا.

وقال لزوجته. أبشرى: فإنى أرجو أن يكون غلاما، لنا فيه منافع، وقرة عين، أختار له أحسن الأسماء، وأحضر له سائر الأدباء.

فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدرى أيكون أم لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذى أراق على رأسه السمن والعسل.

قال لها: وكيف كان ذلك؟

قالت: زعموا أن ناسكا كان يجرى[٦] عليه من بيت رجل تاجر، فى كل يوم، رزق من السمن والعسل، وكان يأكل منه قوته وحاجته، ويرفع الباقى، ويجعله فى جرة،

---

(١) العجلان: المتعجل.

(٢) روية: تمهل.

(٣) ابن عرس: دويبة كالفأرة تفتك بالدجاج ونحوه.

(٤) جرجان: أحد بلاد فارس.

(٥) الإياس: القنوط.

(٦) يجري: يأتي.

فيعلقها فى وتد فى ناحية البيت، حتى امتلأت.

فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره، والعكازة فى يده، والجرة معلقة على رأسه، تفكر فى غلاء السمن والعسل، فقال:

سأبيع ما فى هذه الجرة بدينار، وأشترى به عشرة أعنز، فيحبلن ويلدن فى كل خمسة أشهر بطنا، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة، إذا ولدت أولادها؛ ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز؛ فقال:

أنا أشترى بها مائة من البقر، بكل أربعة أعنز ثورا أو بقرة، وأشترى أرضا وبذرا[1]، وأستأجر أكرة[2] وأزرع على الثيران، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها فلا يأتى على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا: فأبنى بيتا فاخرا؛ وأشترى إماء وعبيدا؛ وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن؛ ثم تأتى بغلام سرى نجيب؛ فأختار له أحسن الأسماء؛ فإذا ترعرع أدبته، وأحسنت تأديبه، وأشدد عليه فى ذلك، فإن يقبل منى، وإلا ضربته بهذه العكازة، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها، فسال ما كان فيها على وجهه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لكى لا تعجل بذكر ما لا ينبغى ذكره، وما لا تدرى أيصح أم لا يصح.

فاتعظ الناسك بما حكت زوجته.

ثم إن المرأة ولدت غلاما جميلا ففرح به أبوه. وبعد أيام حان لها أن تتطهر فقالت المرأة للناسك: اقعد عند ابنك حتى أذهب إلى الحمام فأغتسل وأعود. ثم إنها انطلقت إلى الحمام، وخلفت زوجها والغلام.

فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه، ولم يجد من يخلفه عند ابنه، غير ابن

(١) بذرًا: الحب الذي في الأرض.

(٢) الأكرة: الحراث.

عرس داجن[1] عنده، كان قد رباه صغيرا فهو عنده عديل ولده. فتركه الناسك عند الصبى، وأغلق عليهما البيت، وذهب مع الرسول.

فخرج من بعض أحجار البيت حية سوداء، فدنت من الغلام، فضربها ابن عرس، ثم وثب عليها فقتلها، ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها.

ثم جاء الناسك، وفتح الباب، فالتقاه ابن عرس، كالمبشر له بما صنع من قتل الحية. فلما رآه ملوثا بالدم، وهو مذعور، طار عقله، وظن أنه قد خنق ولده.

ولم يتثبت فى أمره، ولم يترو فيه، حتى يعلم حقيقة الحال، ويعمل بغير ما ظن من ذلك. ولكن عجل على ابن عرس، وضربه بعكازة كانت فى يده، على أم رأسه، فمات. ودخل الناسك فرأى الغلام سليما حيا، وعنده أسود[2] مقطع. فلما عرف القصة، وتبين له سوء فعله فى العجلة، لطم على رأسه. وقال:

ليتنى لم أرزق هذا الولد، ولم أغدر هذا الغدر! ودخلت امرأته، فوجدته على تلك الحال.

فقالت له: ما شأنك؟

فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له.

فقالت: هذه ثمرة العجلة! فهذا مثل من لا يتثبت فى أمره، بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة.

(انقضى باب الناسك وابن عرس)

(١) داجن: آلف.

(٢) أسود: أفعى.

الباب الحادي عشر

باب الجرذ والسنـور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل رجل كثر أعداؤه، وأحدقوا[1] به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف وأمن؛ ثم وفى لمن صالحه منهم.

قال الفيلسوف: إن المودة والعدواة لا تثبتان على حالة واحدة أبدا. وربما حالت المودة إلى العداوة، وصارت العداوة ولاية وصداقة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب، وذو الرأيِ يحدث لكل ما يحدث من ذلك رأيا جديدا: أما من قبل العدو فبالبأس[2]، وأما من قبل الصديق فبالاستئناس. ولا تمنع ذا العقل عدواة كانت فى نفسه لعدوه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مخوف أو جر مرغوب. ومن عمل فى ذلك بالحزم ظفر بحاجته. ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا فى الورطة، فنجوَا باصطلاحهما جميعا من الورطة والشدة.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أن شجرة عظيمة كان فى أصلها جحر سنور يقال له رومى، وكان قريبا منه جحر جرذ يقال له فريدون، وكان الصيادون كثيرا يتداولون ذلك المكان، يصيدون فيه الوحش والطير؛ فنزل ذات يوم صياد، فنصب حبالته قريبا من موضع رومى، فلم يلبث أن وقع فيها.

فخرج الجرذ يدب، ويطلب ما يأكل، وهو حذر من رومى، فبينما هو يسعى إذ بصر به فى الشرك، فسر واستبشر. ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس، يريد أخذه، وفى الشجرة بوما، يريد اختطافه؛ فتحير فى أمره، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس، وإن ذهب يمينا أو شمالا اختطفه البوم، وإن تقدم أمامه افترسه السنور.

---

(١) أحدقوا: أحاطوا به، وشددوا إليه النظر.
(٢) البأس: الشدة.

فقال فى نفسه: هذا بلاء قد اكتنفنى[١]، وشرور تظاهرت علىَّ، ومحن قد أحاطت بى، وبعد ذلك فمعى عقلى، فلا يفزعنى أمرى، ولا يهولنى شأنى، ولا يلحقنى الدهش، ولا يذهب قلبى شعاعا[٢]: فالعاقل لا يفرق[٣] عند سداد رأيه، ولا يعزب[٤] عنه ذهنه على حال. وإنما العقل شبيه بالبحر الذى لا يدرك غوره[٥]. ولا يبلغ البلاء من ذى الرأى مجهوده فيهلكه، وتحقق الرجاء لا ينبغى أن يبلغ منه مبلغا يبطره ويسكره: فيعمى عليه أمره. ولست أرى لى من هذا البلاء مخلصا إلا مصالحة السنور. فإنه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بى أو بعضه. ولعله إن سمع كلامى الذى أكلمه به، ووعى عنى فصيح خطابى، ومحض[٦] صدقي الذى لا خلاف فيه، ولا خداع معه ففهمه، وطمع فى معونتى إياه، نخلص جميعا.

ثم إن الجرذ دنا من السنور فقال له: كيف حالك؟

قال له السنور: كما تحب: فى ضنك[٧] وضيق.

قال: وأنا اليوم شريكك فى البلاء، ولست أرجو لنفسى خلاصا إلا بالذى أرجو لك فيه الخلاص. وكلامى هذا ليس فيه كذب ولا خديعة. وابن عرس ها هو كامن لى، والبوم يرصدنى، وكلاهما لى ولك عدو. فإن جعلت لى الأمان، قطعت حبائلك، وخلصتك من هذه الورطة. فإذا كان ذلك تخلص كل واحد منا بسبب صاحبه: كالسفينة والركاب فى البحر: فبالسفينة ينجون، وبهم تنجو السفينة. فلما سمع السنور

---

(١) اكتنفني: أحاط بي.

(٢) يذهب قلبي شعاعًا: تفرقت الهمم والآراء، فلا تتجه لأمر.

(٣) لا يفرق: لا يهاب.

(٤) يعزب: يبتعد.

(٥) غوره: قعره.

(٦) المحض: الخالص.

(٧) ضنك: ضيق وشدة.

كلام الجرذ، وعرف أنه صادق، قال له:

إن قولك هذا لشبيه بالحق، وأنا أيضا راغب فيما أرجو لك ولنفسى به الخلاص. ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكرك ما بقيت.

قال الجرذ: فإنى سأدنو منك، فأقطع الحبائل كلـها إلا حبلا واحدا أبقيه لأستوثق لنفسى منك. ثم أخذ فى قرض حبائله ثم إن البوم وابن عرس لما رأيا دنو الجرذ من السنور أيسا منه وانصرفا.

ثم إن الجرذ أبطأ على رومى فى قطع الحبائل فقال له:

مالى لا أراك مجدا فى قطع حبائلى؟ فإن كنت قد ظفرت بحاجتك: فتغيرت عما كنت عليه، وتوانيت[1] فى حاجتى، فما ذلك من فعل الصالحين: فإن الكريم لا يتوانى فى حق صاحبه. وقد كان لك فى سابق مودتى من الفائدة والنفع ما قد رأيت. وأنت حقيق أن تكافئنى بذلك، ولا تذكر العداوة التى بينى وبينك: فالذى حدث بينى وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك، مع ما فى الوفاء من الفضل والأجر، وما فى الغدر من سوء العاقبة: فإن الكريم لا يكون إلا شكورا غير حقود، تنسيه الخلة الواحدة[2] من الإحسان الخلال[3] الكثيرة من الإساءة. وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر. ومن إذا تضرع إليه، وسئل العفو، فلم يرحم، ولم يعف، فقد غدر.

قال الجرذ: إن الصديق صديقان: طائع ومضطر. وكلاهما يلتمسان المنفعة، ويحترسان من المضرة. فأما الطائع فيسترسل إليه، ويؤمن فى جميع الأحوال. وأما المضطر ففى بعض الأحوال يسترسل إليه، وفى بعضها يتحذر منه. ولا يزال العاقل يرتهن منه بعض حاجاته، لبعض ما يتقى ويخاف. وليس عاقبة التواصل من المتواصل

(١) توانيت: تهاونت.

(٢) الخلة الواحدة: الخَصْلةُ الواحدة.

(٣) الخلال الكثيرة: الخصال الكثيرة.

إلا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله. وأنا وافٍ لك بما جعلت لك، ومحترس منك مع ذلك، من حيث أخافك تخوفا أن يصيبنى منك ما ألجأنى خوفه إلى مصالحتك، وألجأك إلى قبول ذلك منى: فإن لكل عمل حينا. فما لم يكن منه فى حينه، فلا حسن لعاقبته. وأنا قاطع حبائلك كلها؛ غير أنى تارك عقدة واحدة أرتهنك بها، ولا أقطعها إلا فى الساعة التى أعلم أنك فيها عنى مشغول: وذلك عند معاينتى الصياد.

ثم إن الجرذ أخذ فى قطع حبائل السنور. فبينما هو كذلك إذ وافى الصياد، فقال له السنور: الآن جاء الجد فى قطع حبائلى. فأجهد الجرذ نفسه فى القرض؛ حتى إذا فرغ وثب السنور إلى الشجرة على دهش من الصياد، ودخل الجرذ بعض الأجحار، وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطعة، ثم انصرف خائبا.

ثم إن الجرذ خرج بعد ذلك، وكره أن يدنو من السنور، فناداه السنور: أيها الصديق الناصح، ذو البلاء الحسن[١] عندى، ما منعك من الدنو إلىَّ، لأجازيَك بأحسن ما أسديت إلى، هلم إلى ولا تقطع إخائى: فإنه من اتخذ صديقا، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حرم ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء. وإن يدك عندى[٢] لا تنسى، وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك منى ومن إخوانى وأصدقائى، ولا تخافن منى شيئا. واعلم أن ما قبلى[٣] لك مبذول. ثم حلف واجتهد على صدقه فيما قال.

فناداه الجرذ: رب صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة. وهى أشد من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس منها، وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم[٤] (الهائج)، ثم يغلبه النعاس، فيستيقظ تحت فراسن الفيل[٥]، فيدوسه ويقتله. وإنما

(١) البلاء الحسن: الأداء الحسن.
(٢) يدك عندي: معروفك عندي.
(٣) قبلي: عندي.
(٤) المغتلم: الهائج.
(٥) فراسن الفيل: حوافر الفيل.

سمى الصديق صديقا: لما يرجى من نفعه، وسمى العدو عدوا: لما يخاف من ضرره. والعاقل إذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضر الصديق أظهر له العداوة. ألا ترى تتبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها.

وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله، فلم يخف شره: لأن أصل أمره لم يكن عداوة. فأما من كان أصل أمره عداوة جوهرية، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك، فإنه إذا زالت الحاجة التى حملته على ذلك، زالت صداقته، فتحولت عداوة، وصار إلى أصل أمره: كالماء الذى يسخن بالنار، فإذا رفع عنها عاد باردا. وليس من أعدائى عدو أضر لى منك. وقد اضطرنى وإياك حاجة إلى ما أحدثنا من المصالحة. وقد ذهب الأمر الذى احتجت إلى واحتجت إليك فيه، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة. ولا خير للضعيف فى قرب العدو القوى، ولا للذليل فى قرب العدو العزيز. ولا أعلم لك قِبلي حاجة؛ إلا أن تكون تريد أكلى؛ ولا أعلم لى قبلك حاجة، وليس عندى بك ثقة: فإنى قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوى أقرب إلى السلامة من القوى إذا اغتر بالضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصالح عدوه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له وده؛ ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدا، ثم يعجل الانصراف عنه، حين يجد إلى ذلك سبيلا.

واعلم أن سريع الاسترسال لا تقال عثرته[1]. والعاقل يفى لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كل الثقة، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه. وينبغى أن يبعد عنه ما استطاع. وأنا أودك من بعيد، وأحب لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبه لك من قبل. ولا عليك أن تجازينى على صنيعى إلا بمثل ذلك: إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام.

(انقضى باب الجرذ والسنور)

(١) لا تقال عثرته: لا يقوم من سقطته.

الباب الثاني عشر

ابـــن المـــلك والطائـــر فنـــزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل أهل الترات[١] الذين لابد لبعضهم من اتقاء بعض. قال بيدبا: زعموا أن ملكا من ملوك الهند كان يقال له بريدون، وكان له طائر يقال له فنزة، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجبا. فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة عليهما. واتفق أن امرأة الملك ولدت غلاما، فألف الفرخ الغلام. وكلاهما طفلان يلعبان جميعا.

وكان فنزة يذهب إلى الجبل كل يوم، فيأتى بفاكهة لا تعرف، فيطعم ابن الملك شطرها، ويطعم فرخه شطرها. فأسرع ذلك فى نشأتهما، وزاد فى شبابهما، وبان عليهما أثره عند الملك: فازداد لفنزة إكراما وتعظيما ومحبة؛ حتى إذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب فى اجتناء الثمرة، وفرخه فى حجر الغلام، ذرق[٢] فى حجره؛ فغضب الغلام، وأخذ الفرخ فضرب به الأرض فمات. ثم إن فنزة أقبل فوجد فرخة مقتولا، فصاح وحزن، وقال:

قبحا للملوك الذين لا حمية[٣] لهم ولا حرمة، ولا يحبون أحدا ولا يكرم عليهم إلا إذا طمعوا فيما عنده من غناء، واحتاجوا إلى ما عنده من علم: فيكرمونه لذلك، فإذا ظفروا بحاجتهم منه، فلا ود، ولا إخاء، ولا إحسان، ولا غفران ذنب، ولا معرفة حق! هم الذين أمرهم مبنى على الرياء والفجور. وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب، ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم. ومنهم هذا الكفور[٤] الذى لا رحمة له، الغادر بأليفه وأخيه.

---

(١) أهل الترات: أهل العداوة والثأر.

(٢) ذرق: راث.

(٣) لا حمية: لا ذمة.

(٤) الكفور: الجاحد للنعم.

ثم وثب فى شدة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينه، وطار فوقع على شرفة المنزل[١].

ثم إنه بلغ الملك ذلك، فجزع أشد الجزع، ثم طمع أن يحتال له، فوقف قريبا منه، وناداه، وقال له:

إنك آمن، فانزل يا فنزة.

فقال له: أيها الملك إن الغادر مأخوذ بغدره، وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة، لم يخطئه الآجل؛ حتى إنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب[٢]، وإن ابنك غدر بابنى، فعجلت له العقوبة.

قال الملك: لعمرى قد غدرنا بابنك، فانتقمت منا: فليس لك قبلنا، ولا لنا قبلك وتر مطلوب. فارجع إلينا آمنا.

قال فنزة: لست براجع إليك أبدا: فإن ذوى الرأى قد نهوا عن قرب الموتور[٣]فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمته إياك إلا وحشة منه، وسوء ظن به: فإنك لا تجد للحقود الموتور أمانا هو أوثق لك من الذعر منه، ولا أجود من البعد عنه، والاحتراس منه أولى. وقد كان يقال: إن العاقل يعد أبويه أصدقاء، والإخوة رفقاء، والأزواج ألفاء، والبنين ذِكرا، والبنات خصماء، والأقارب غرماء ويعد نفسه فريدا. وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد، قد تزودت من عندكم من الحزن عبئا ثقيلا، لا يحمله معى أحد. وأنا ذاهب. فعليك منى السلام.

قال له الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت[٤] منا فيما صنعناه بك، بل كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر، كان الأمر كما ذكرت. وأما إذ كنا نحن بدأناك، فما ذنبك؟

---

(١) شرفة المنزل: بناء خارج من المنزل يستشرف منه على ما حوله.

(٢) الأعقاب: الأجيال التالية.

(٣) أي: الذي لم يأخذ بثأر من قتل له.

(٤) اجتزيت: انتقمت.

وما الذى يمنعك من الثقة بنا؟ هلم فارجع: فإنك آمن.

قال فنزة: اعلم أن الأحقاد لها فى القلوب مواقع ممكنة موجعة. فالألسن لا تصدق فى خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب. وقد علمت أن قلبى لا يشهد للسانك، ولا قلبك للسانى.

قال الملك: ألم تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس: فمن كان ذا عقل، كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته.

قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت؛ ولكن ليس ينبغى لذى الرأى مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناس ما وتر به، مصروف عنه فكره فيه.

وذو الرأى يتخوف المكر والخديعة والحيل، ويعلم أن كثيرا من العدو لا يستطاع بالشدة والمكابرة؛ حتى بالرفق والملاينة: كما يصاد الفيل الوحشى بالفيل الداجن. قال الملك: إن العاقل الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ، وإن هو خاف على نفسه؛ حتى إن هذا الخلق يكون فى أوضع الدواب منزلة: فقد علمت أن اللعَّابين يلعبون بالكلاب، ثم يذبحونها ويأكلونها. ويرى الكلب الذى قد ألفهم ذلك، فلا يدعوه إلى مفارقتهم، ولا يمنعه من ألفته إياهم.

قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت. فأخوفها وأشدها ما كان فى أنفس الملوك: فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدرك والطلب بالوتر[1] مكرمة وفخرا. وإن العاقل لا يغتر بسكون الحقد إذا سكن فإنما مثل الحقد فى القلب، إذا لم يجد محركا، مثل الجمر المكنون[2]، ما لم يجد حطبا، فليس ينفك الحقد متطلعا إلى العلل، كما تبتغى النار الحطب: فإذا وجد علة استعر[3] استعار النار: فلا يطفئه حسن كلام، ولا لين

(١) الوتر: الثأر.

(٢) المكنون: المستور.

(٣) استعر: اشتد.

ولا رفق، ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة، ولا شيء دون تلف الأنفس. مع أنه رب واتر يطمع فى مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له، والدفع عنه. ولكنى أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به ما فى نفسك. ولو كانت نفسك منطوية لى على ما تقول ما كان ذلك عنى مغنيا. ولا أزال فى خوف ووحشة، وسوء ظن، ما اصطحبنا. فليس الرأى بينى وبينك إلا الفراق. وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضرا ولا نفعا؛ وأنه لا شيء من الأشياء صغيرا ولا كبيرا، يصيب أحدا، إلا بقضاء وقدر معلوم. وكما أن خلق ما يخلق، وولادة ما يولد، وبقاء ما يبقى، ليس إلى الخلائق منه شيء؛ كذلك فناء ما يفنى، وهلاك ما يهلك. وليس لك فى الذى صنعت بابنى، ذنب؛ ولا لابنى فيما صنع بابنك ذنب. إنما كان ذلك كله قدرا مقدورا، وكلانا له علة: فلا نؤاخذ بما أتانا به القدر.

قال فنزة: إن القدر لكما ذكرت، لكن لا يمنع ذلك الحازم من توقى المخاوف، والاحتراس من المكاره. ولكنه يجمع تصديقا بالقدر وأخذا بالحزم والقوة. وأنا أعلم أنك تكلمنى بغير ما فى نفسك.

والأمر بينى وبينك غير صغير: لأن ابنك قتل ابنى، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تشتفى[1] بقتلى، وتختلنى[2] عن نفسى؛ والنفس تأبى الموت.

وقد كان يقال: الفاقة بلاء، والحزن بلاء، وقرب العدو بلاء، وفراق الأحبة بلاء، والسقم بلاء، والهرم بلاء؛ ورأس البلايا كلها الموت. وليس أحد بأعلم بما فى نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل ما به.

فأنا بما فى نفسى عالم بما فى نفسك: للمثل الذى عندى من ذلك. ولا خير لى فى صحبتك: فإنك لن تتذكر صنيعى بابنك، ولن أتذكر صنيع ابنك بابنى، إلا أحدث

(١) تشتفي: ترتاح.

(٢) تختلني: تخدعنى.

ذلك لقلوبنا تغييرا.

قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما فى نفسه، وينساه ويهمله، حتى لا يذكر منه شيئا، ولا يكون له فى نفسه موقع.

قال فنزة: إن الرجل الذى فى باطن قدمه قرحة[١]، إن هو حرص على المشى، فلا بد أنه لا يزال يشتكى قرحته. والرجل الأرمد العين[٢] إذا استقبل بها الريح، تعرض لأن تزداد رمدا. وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور، فقد عرض نفسه للهلاك.

ولا ينبغى لصاحب الدنيا إلا توقى المهالك والمتالف. وتقدير الأمور وقلة الاتكال على الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يأمن: فإنه من اتكل على قوته، فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف، فقد سعى فى حتف نفسه. ومن لا يقدر لطاقته طعامه وشرابه، وحمل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل، فقد قتل نفسه. ومن لا يقدر لقمته، وعظمها فوق ما يسع فوه[٣]، فربما غُص[٤] بها فمات.

ومن اغتر بكلام عدوه، وانخدع له، وضيع الحزم، فهو أعدى لنفسه من عدوه. وليس لأحد النظر فى القدر الذى لا يدرى ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه؛ ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه فى ذلك. والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهبا. وأنا كثير المذاهب، وأرجو ألا أذهب وجها إلا أصبت فيه ما يغنينى: فإن خلالا خمسا من تزودهن كفينه فى كل وجه، وآنسنه فى كل غربة، وقربن له البعيد، وأكسبنه المعاش والإخوان:

أولهن كف الأذى، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الريب، والرابعة كرم

---

(١) قرحة: جروح.

(٢) أي: أصاب عينيه الهيجان والانتفاخ.

(٣) فوه: فمه.

(٤) أي: اعترض في حلقه الطعام.

الخلق، والخامسة النبل فى العمل.

وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن: فإنه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفا.

وشر المال ما لا إنفاق منه، وشر الأزواج التى لا تواتى بعلها[1]، وشر الولد العاصى العاق لوالديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذى يخافه البرىء، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلاد لا خصب فيها ولا أمن، وإنه لا أمن لى عندك أيها الملك ولا طمأنينة لى فى جوارك. ثم ودع الملك وطار.

فهذا مثل ذوى الأوتار الذين لا ينبغى لبعضهم أن يثق ببعض.

(انقضى باب ابن الملك والطائر فنزة)

(١) تؤاتي بعلها: تطيع زوجها.

الباب الثالث عشر

الأسد والشغبر الناسك

وهو ابن آوى

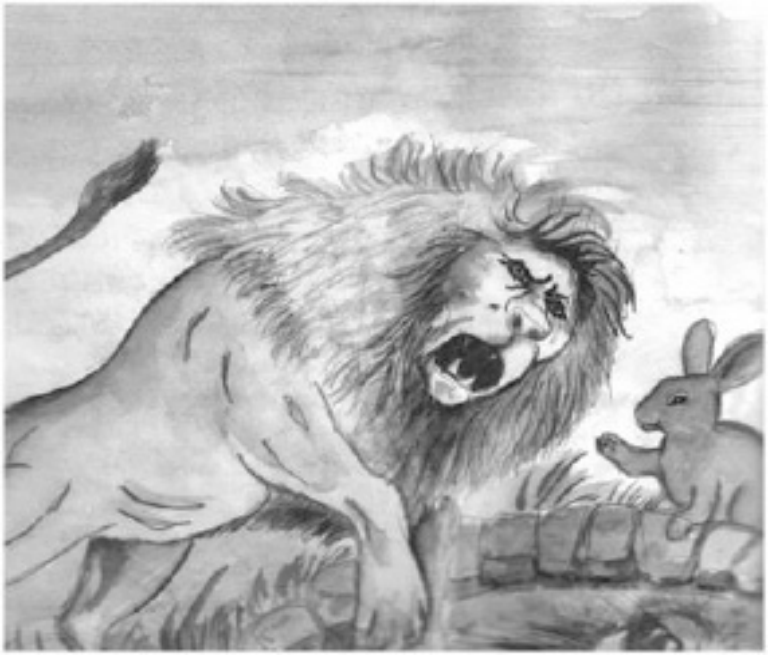

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل الملك الذى يراجع[1] من أصابته منه عقوبة من غير جرم، أو جفوة من غير ذنب.

قال الفيلسوف: إن الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب، ظلم أو لم يظلم، لأضر ذلك بالأمور والأعمال، ولكن الملك حقيق أن ينظر فى حال من ابتلى بذلك، ويخبر ما عنده من المنافع: فإن كان ممن يوثق به فى رأيه وأمانته، فإن الملك حقيق بالحرص على مراجعته: فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوى الرأى وهم الوزراء والأعوان ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة؛ ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوى الرأى والعفاف.

وأعمال السلطان كثيرة؛ والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون.

ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل. والمثل فى ذلك مثل الأسد وابن آوى.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوى كان يسكن فى بعض الدحال[2]، وكان متزهدا متعففا، مع بنات آوى وذئاب وثعالب. ولم يكن يصنع ما يصنعنَ، ولا يغير كما يغرن، ولا يهريق دما، ولا يأكل لحما. فخاصمه تلك السباع، وقلن:

لا نرضى بسيرتك ولا رأيك الذى أنت عليه من تزهدك: مع أن تزهدَك لا يغنى عنك شيئا. وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا: تسعى معنا، وتفعل فعلنا فما الذى كفك عن الدماء وعن أكل اللحم؟

---

(١) يراجع: يعاود ويكرر.

(٢) الدحال: مكان أعلاه ضيق وأسفله واسع.

قال ابن آوى: إن صحبتى إياكن لا تؤثمنى إذا لم أؤثم نفسى: لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب؛ ولكنها من قبل القلوب والأعمال. ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحا، وصاحب المكان السيئ يكون عمله فيه سيئا، كان حينئذ من قتل الناسك فى محرابه[١] لم يأثم، ومن استحياه[٢] فى معركة القتال أثم. وإنى إنما صحبتكن بنفسى، ولم أصحبكن بقلبى وأعمالى: لأنى أعرف ثمرة الأعمال: فلزمت حالى. وثبت ابن آوى على حاله تلك، واشتهر بالنسك والتزهد؛ حتى بلغ ذلك أسدا كان ملك تلك الناحية، فرغب فيه: لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة، فأرسل إليه يستدعيه. فلما حضر كلمه وآنسه فوجده فى جميع الأمور وفق غرضه.

ثم دعاه بعد أيام إلى صحبته وقال له:

تعلم أن عمالى كثير، وأعوانى جم غفير[٣]، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج. وقد بلغنى عنك عفاف وأدب وعقل ودين، فازددت فيك رغبة. وأنا موليك من عملى جسيما ورافعك إلى منزلة شريفة، وجاعلك من خاصتى.

قال ابن آوى: إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم. وهم أحرى ألا يُكرهوا[٤] على ذلك أحدا: فإن المكره لا يستطيع المبالغة فى العمل. وإنى لعمل السلطان كاره. وليس لى به تجربة، ولا بالسلطان رفق. وأنت ملك السباع، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير، فيهم أهل نبل وقوة، ولهم على العمل حرص، وعندهم به وبالسلطان رفق: فإن استعملتهم أغنوا عنك، واغتبطوا

(١) محرابه: المكان الذي يتعبد فيه.
(٢) استحياه: جعله حيّا واستبقاه.
(٣) جم غفير: جمع كثير.
(٤) يُكرِهوا: يجبروا.

لأنفسهم بما أصابهم من ذلك.

قال الأسد: دع عنك هذا: فإنى غير معفيك من العمل.

قال ابن آوى: إنما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما:

إما فاجر مصانع[1]، ينال حاجته بفجوره، ويسلم بمصانعته؛ وإما مغفل لا يحسده أحد. فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته؛ وحينئذ قلَّ أن يسلم على ذلك: لأنه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد.

أما الصديق فينافسه فى منزلته، ويبغى عليه فيها، ويعاديه لأجلها؛ وأما عدو السلطان فيضطغن[2] عليه، لنصيحته لسلطانه، وإغنائه عنه. فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك.

قال الأسد: لا يكونن بغى أصحابى عليك، وحسدهم إياك مما يعرض فى نفسك: فأنت معى، وأنا أكفيك ذلك، وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همتك.

قال ابن آوى: إن كان الملك يريد الإحسان إلىَّ، فليدعنى فى هذه البرية أعيش آمنا، قليل الهم، راضيا بعيشى من الماء والعشب: فإنى قد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف فى ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره فى طول عمره؛ وإن قليلا من العيش فى أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش فى خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعت مقالتك، فلا تخف شيئا مما أراك تخاف منه. ولست أجد بدا من الاستعانة بك فى أمرى.

قال ابن آوى: أما إذا أبى الملك إلا ذلك فليجعل لى عهدا، إن بغى على أحد من

(١) مصانع: منافق.

(٢) فيضطغن عليه: فيحقد عليه.

أصحابه عنده، ممن هو فوقى: مخافة على منزلته، أو ممن هو دونى: لينازعنى فى منزلتى، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه، أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك عليَّ، ألا يعجل فى أمرى، وأن يتثبت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك، ويفحص عنه، ثم ليصنع ما بدا له. فإذا وثقت منه بذلك، أعنته بنفسى فيما ولانى بنصيحة واجتهاد، وحرصت على ألا أجعل له على نفسى سبيلا. قال الأسد: لك ذلك عليَّ وزيادة.

ثم ولاه خزائنه، واختص به دون أصحابه، وزاد فى كرامته.

فلما رأى أصحاب الأسد ذلك، غاظهم وساءهم. فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم على أن يحملوا عليه الأسد.

وكان الأسد قد استطاب لحما[1] فعزل منه مقدارا، وأمره بالاحتفاظ به، وأن يرفعه فى أحصن موضع طعامه وأحرزه: ليعاد عليه؛ فأخذوه من موضعه، وحملوه إلى بيت ابن آوى، فخبئوه فيه، ولا علم له به؛ ثم حضروا يكذبونه إن جرت فى ذلك حال.

فلما كان من الغد، ودعا الأسد بغدائه، فقد ذلك اللحم، فالتمسه[2] ولم يجده؛ وابن آوى لم يشعر بما صنع فى حقه من المكيدة.

فحضر الذين عملوا المكيدة، وقعدوا فى المجلس. ثم إن الملك سأل عن اللحم، وشدد فيه، وفى المسألة عنه، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لابد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه، وإن شق ذلك على من يشق عليه. وإنه بلغنى أن ابن آوى هو الذى ذهب باللحم إلى منزله.

قال الآخر: لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا: فإن معرفة الخلائق شديدة.

فقال الآخر: لعمرى ما تكاد السرائر تعرف، وأظنكم إن فحصتم عن هذا وجدتم

(١) استطاب لحمًا: استحسن لحمًا.

(٢) التمسه: طلبه.

اللحم ببيت ابن آوى؛ وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحق أن نصدقه.

قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقا فليست بالخيانة فقط، ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجراءة على الملك.

قال الآخر: أنتم أهل العدل والفضل، لا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته من يفتشه.

قال آخر: إن كان الملك مفتشا منزله فليعجل: فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة[1] بكل مكان. ولم يزالوا فى هذا الكلام وأشباهه، حتى وقع فى نفس الأسد ذلك؛ فأمر بابن آوى فحضر، فقال له:

أين اللحم الذى أمرتك بالاحتفاظ به؟

قال: دفعته إلى صاحب الطعام ليقربه إلى الملك.

فدعا الأسد بصاحب الطعام؛ وكان ممن شايع وبايع[2] مع القوم على ابن آوى. فقال: ما دفع إلى شيئا.

فأرسل الأسد أمينا إلى بيت ابن آوى ليفتشه، فوجد فيه ذلك اللحم؛ فأتى به الأسد. فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلم فى شيء من ذلك. وكان يظهر أنه من العدول الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون، حتى يتبين لهم الحق. فقال:

بعد أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفون عنه: فإنه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن، ولا ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج، ويُحتفظ به.

فقال بعض جلساء الملك: إنى لأعجب من رأى الملك ومعرفته بالأمور كيف

(١) مبثوثة: منتشرة.

(٢) بايع: أيد.

يخفى عليه أمر هذا، ولم يعرف خبه ومخادعته؟ وأعجب من هذا أني أراه سيصفح عنه، بعد الذى ظهر منه.

فأرسل الأسد بعضهم رسولا إلى ابن آوى يلتمس منه العذر، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها؛ فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يُقتل.

فعلمت أم الأسد أنه قد عجل فى أمره؛ فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت على ابنها، فقالت:

يابنى بأى ذنب أمرت بقتل آبن آوى؟ فأخبرها بالأمر.

فقالت: يابنى عجلت. وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبت. والعجلة لا يزال صاحبها يجتنى ثمرة الندامة، بسبب ضعف الرأى. وليس أحد أحوج إلى التؤدة[1] والتثبت من الملوك: فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبت والأناة؛ ورأس الكل الحزم، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم، واتهامه بعضهم على بعض. فإنه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلا لفعل. وقد جربت ابن آوى، وبلوت رأيه[2] وأمانته ومروءته، ثم لم تزل مادحا له راضيا عنه. وليس ينبغى للملك أن يخونه بعد ارتضائه إياه وائتمانه له؛ ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خيانة إلا على العفة والنصيحة.

وما كان رأى الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم، وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر فى حال ابن آوى: لتعلم أنه لم يكن ليتعرض للحم استودعته إياه. ولعل الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماؤ وهم الذين ائتمروا بهذا الأمر.

(١) التؤدة: التمهل والتأنى.

(٢) بلوت رأيه: اختبرت رأيه.

وهم الذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه: فإن الحدأة[1] إذا كان فى رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم اجتمعت عليه الكلاب. وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع، وكان محتملا لكل ضرر فى جنب منفعة تصل إليك، ولكل عناء يكون لك فيه راحة، ولم يكن يطوى دونك سرا.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة، إذ دخل على الأسد بعض ثقاته، فأخبره ببراءة ابن آوى.

فقالت أم الأسد، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى: إن الملك حقيق ألا يرخص لمن سعى به لئلا يتجرءوا على ما هو أعظم من ذلك؛ بل يعاقبهم عليه لكى لا يعودوا إلى مثله: فإنه لا ينبغى للعاقل أن يراجع فى أمر الكفور للحسنى، الجرىء على الغدر، الزاهد فى الخير، الذى لا يوقن بالآخرة. وينبغى أن يجزَى بعمله، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة[2]؛ ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير. والأولى لك أن تراجع ابن آوى، وتعطف عليه؛ ولا يوئيسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة: فإن من الناس من لا ينبغى تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منهم المئونة. وأما من ينبغى تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها. وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته.

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيرا، وقال:

إنى معتذر إليك ورادك إلى منزلتك.

---

(١) الحدأة: طائر من الجوارح ينقض على الفئران والدواجن والأطعمة ونحوها.

(٢) الهفوة: السقطة والذلة.

فقال ابن آوى: إن شر الأخلاء[1] من التمس منفعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه. وكثيرا ما يقع ذلك بين الأخلاء. وقد كان من الملك إليَّ ما علم؛ فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به أنى به غير واثق، وأنه لا ينبغى لى أن أصحبه: فإن الملوك لا ينبغى أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب؛ ولا ينبغى لهم أن يرفضوه أصلا: فإن ذا السلطان إذا عزل كان مستحقا للكرامة فى حالة إبعاده والإقصاء[2] له.

فلم يلتفت الأسد إلى كلامه. ثم قال له: إنى قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك؛ وعرفت كذب من تمحل[3] الحيل لتحملى عليك. وإنى منزلتك من نفسى منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان، الخلال الكثيرة من الإساءة. وقد عدنا إلى الثقة بك، فعد إلى الثقة بنا: فإن لنا ولك بذلك غبطة وسرورا.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام إلا تقربا من السلطان.

(انقضى باب الأسد وابن آوى)

(١) الأخلاء: الأصحاب.

(٢) الإقصاء: الإبعاد.

(٣) تمحل: تحايل.

الباب الرابع عشر

إيلاذ وبلاذ وإيراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثلا فى الأشياء التى يجب على الملك أن يُلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه، ويكون ذلك رأس أمره وملاكه: أبالحلم[1] أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود؟

قال بيدبا: إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم، وبه تثبت السلطنة؛ والحلم رأس الأمور وملاكها، وأجود ما كان فى الملوك. كالذى زعموا من أنه كان ملك يدعى بلاذ، وكان له وزير يدعى إيلاذ. وكان متعبدا ناسكا.

فنام الملك ذات ليلة، فرأى فى منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوبا. فدعا البراهمة، وهم النساك ليعبروا رؤياه[2].

فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأى.

فقالوا بأجمعهم: لقد رأى الملك عجبا فإن أمهلنا سبعة أيام جئناه بتأويله.

قال الملك: قد أمهلتكم.

فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا فى منزل أحدهم وأتمروا بينهم. وقالوا:

قد وجدتم علما واسعا تدركون به ثأركم وتنتقمون به من عدوكم؛ وقد علمتم أنه قتل منا بالأمس اثنى عشر ألفا. وها هو قد أطلعنا على سره وسألنا تفسير رؤياه: فهلموا نغلظ له القول ونخوفه حتى يحمله الفرق والجزع على أن يفعل الذى نريد ونأمر. فنقول: ادفع إلينا أحباءك ومن يكرُم عليك حتى نقتلهم: فإنا قد نظرنا فى كتبنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما وقعت فيه من هذا الشر إلا بقتل من نسمى لك. فإن قال الملك: وما تريدون أن تقتلوا؟ سموهم لى. قلنا: نريد الملكة إيراخت أم

(١) الحلم: العقل والأناة.

(٢) ليعبروا رؤياه: يفسروا أحلامه.

جوير المحمودة أكرم نسائك عليك. ونريد جوير أحب بنيك إليك وأفضلهم عندك. ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلاذ خليلك وصاحب أمرك. ونريد كالا الكاتب صاحب سرك وسيفك الذى لا يوجد مثله، والفيل الأبيض الذى لا تلحقه الخيل، والفرس الذى هو مركبك فى القتال. ونريد الفيلين الآخرين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر. ونريد البختى[١] السريع القوى. ونريد كبارين الحكيم الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا.

ثم نقول: إنما ينبغى لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك، ثم تجعل دماءهم فى حوض تملؤه، ثم تقعد فيه. فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك ونتفل[٢] عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيب. ثم تقوم إلى منزلك البهى[٣] فيدفع الله بذلك البلاء الذى نتخوفه عليك. فإن صبرت، أيها الملك، وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا لك، وجعلتهم فداءك، تخلصت من البلاء، واستقام لك ملكك وسلطانك، واستخلفت من بعدهم من أحببت. وإن أنت لم تفعل تخوفنا عليك أن يُغصب[٤] ملكك أو تهلك. فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أى قتلة شئنا.

فلما أجمعوا على ما أتمروا به رجعوا إليه فى اليوم السابع. وقالوا له:

أيها الملك، إنا نظرنا فى كتبنا فى تفسير ما رأيت، وفحصنا عن الرأى فيما بيننا. فلتكن لك أيها الملك الطاهر الصالح الكرامة. ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلا أن تخلو بنا. فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم. فحدثوه بالذى ائتمروا به.

---

(١) البختي: الإبل الخراسانية ذات السنامين.

(٢) نتفل: نبصق.

(٣) البهي: الجميل.

(٤) يغصب: يقهر.

فقال لهم: الموت خير لى من الحياة إن أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل[1] نفسى. وأنا ميت لا محالة، والحياة قصيرة، ولست كل الدهر ملكا، وإن الموت عندى وفراق الأحباء سواء.

قال له البراهمة: إن أنت لم تغضب أخبرناك. فأذن لهم.

فقالوا: أيها الملك إنك لم تقل صوابا حين تجعل نفس غيرك أعز عندك من نفسك. فاحتفظ بنفسك وملكك، واعمل هذا الذى لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين. وقر عينا بملكك فى وجوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم. ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثارا لمن تحب. واعلم أيها الملك أن الإنسان إنما يحب الحياة محبة لنفسه. وأنه لا يحب من أحب من الأحباب إلا ليتمتع بهم فى حياته. وإنما قوام نفسك بعد الله تعالى بملكك. وإنك لم تنل ملكك إلا بالمشقة والعناء الكثير فى الشهور والسنين. وليس ينبغى أن ترفضه ويهون عليك. فاستمع كلامنا. فانظر لنفسك مناها، ودع ما سواها: فإنه لا خطر له.

فلما رأى الملك أن البراهمة قد أغلظوا له فى القول واجترءوا عليه فى الكلام اشتد غمه وحزنه. وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى حجرته فخر على وجهه يبكى ويتقلب كما تتقلب السمكة إذا خرجت من الماء، وجعل يقول فى نفسه:

ما أدرى أى الأمرين أعظم فى نفسى؟ المملكة أم قتل أحبائى؟ ولن أنال الفرح ما عشتُ. وليس ملكى بباقٍ على إلى الأبد. ولست بالمصيب سؤلى فى ملكى. وإنى لزاهد فى الحياة إذا لم أر إيراخت. وكيف أقدر على القيام بملكى إذا هلك وزيرى إيلاذ؟ وكيف أضبط أمرى إذا هلك فيلى الأبيض وفرسى الجواد؟ وكيف أدعى ملكا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟

(١) عديل: نظير ومثيل نفسي.

ثم إن الحديث فشا فى الأرض بحزن الملك وهمه. فلما رأى إيلاذ ما نال الملك من الهم والحزن فكر بحكمته ونظر وقال:

ما ينبغى لى أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الذى قد ناله من غير أن يدعونى. ثم انطلق إلى إيراخت فقال:

إنى منذ خدمت الملك إلى الآن لم يعمل عملا إلا بمشورتى ورأيى. وأراه يكتم عنى أمرا لا أعلم ما هو. ولا أراه يظهر منه شيئا. وإنى رأيته خاليا مع جماعة البرهميين منذ ليال. وقد احتجب عنا فيها. وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شىء من أسراره. فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء. فقومى وادخلى عليه فاسأليه عن أمره وشأنه. وأخبرينى بما هو عليه وأعلميني: فإنى لست أقدر على الدخول عليه. فلعل البرهميين قد زينوا له أمرا أو حملوه على خطة قبيحة. وقد علمت أن من خلق الملك أنه إذا غضب لا يسأل أحدا. وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها.

فقالت إيراخت: إنه كان بينى وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه فى هذه الحال.

فقال لها إيلاذ: لا تحملى عليه الحقد فى مثل هذا. ولا يخطرن ذلك على بالك فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك. وقد سمعته كثيرا يقول:

ما اشتد غمى ودخلت على إيراخت إلا سُرى عنى، فقومى إليه واصفحى عنه. وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذى يجده. وأعلمينى بما يكون جوابه: فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة.

فانطلقت إيراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه. فقالت:

ما الذى بك أيها الملك المحمود؟ وما الذى سمعت من البراهمة؟ فإنى أراك محزونا. فأعلمنى ما بك، فقد ينبغى لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا.

فقال الملك: أيتها السيدة لا تسأليني عن أمرى فتزيدينى غما وحزنا: فإنه أمر لا ينبغى أن تسأليني عنه.

قالت: أو قد نزلت عندك منزلة من يستحق هذا؟ إنما أحمد الناس عقلا من إذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشد ضبطا، وأكثرهم استماعا من أهل النصح حتى ينجوَ من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة. فعظيم الذنب لا يقنط[1] من الرحمة. ولا تدخلن عليك شيئا من الهم والحزن. فإنهما لا يردان شيئا مقضيا. إلا أنهما ينحلان[2] الجسم ويشفيان العدو.

قال لها الملك: لا تسأليني عن شيء فقد شققت عليَّ. والذى تسأليننى عنه لا خير فيه: لأن عاقبته هلاكى وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتى ومن هو عديل نفسى. وذاك أن البراهمة زعموا أنه لابد من قتلك وقتل كثير من أهل مودتى. ولا خير فى العيش بعدكم. وهل أحد يسمع بهذا إلا اعتراه الحزن؟

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت[3]. ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعا. فقالت:

أيها الملك لا تجزع فنحن لك الفداء. ولك فى سواى ومثلى من الجوارى ما تقر به عينك. ولكنى أطلب منك، أيها الملك، حاجة يحملنى على طلبها حبى لك وإيثارى إياك. وهى نصيحتى لك.

قال الملك: وما هى؟

قالت: أطلب منك ألا تثق بعدها بأحد من البراهمة. ولا تشاورهم فى أمر حتى تتثبت فى أمرك. ثم تشاور فيه ثقاتك مرارا: فإن القتل أمر عظيم، ولست تقدر على

(١) يقنط: ييأس.
(٢) ينحلان: يضعفان.
(٣) جزعت: لم تصبر.

أن تحيى من قتلتَ. وقد قيل فى الحديث:

إذا لقيت جوهرا لا خير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه.

وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك. واعلم أن البراهمة لا يحبونك. وقد قتلت منهم بالأمس اثنى عشر ألفا. ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك. ولعمرى ما كنت جديرا أن تخبرهم برؤياك، ولا أن تطلعهم عليها. وإنما قالوا لك ما قالوا لأجل الحقد الذى بينك وبينهم: لعلهم يهلكونك ويهلكون أحباءك ووزيرك: فيبلغوا قصدهم منك. فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك، فيعود الملك إليهم كما كان. فانطلق إلى كباريون الحكيم، فهو عالم فطن[1]، فأخبره عما رأيت فى رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها.

فلما سمع الملك ذلك سُرِّيَ عنه ما كان يجده من الغم. فأمر بفرسه فأسرج[2] فركبه ثم انطلق إلى كباريون الحكيم. فلما انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له، وقام مطأطئا الرأس بين يديه.

فقال له الحكيم: ما بالك أيها الملك؟ وما لى أراك متغير اللون؟

فقال له الملك إنى رأيت فى المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة. وأنا خائف أن يصيبنى من ذلك عظيمُ أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياى. وأخشى أن يُغصب منى ملكى أو أن أغلب عليه.

فقال له الحكيم: إن شئت فاقصص رؤياك علىَّ.

فلما قص عليه الملك رؤياه. قال: لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر ولا تخف منه: أما السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما فإنه يأتيك رسول من

(١) فطن: حاذق وماهر.

(٢) السرج: رحل الدابة.

ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك.

وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك:

فإنه يأتيك من ملك بلخ فرَسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك.

وأما الحية التى رأيتها تدب على رجلك اليسرى. فإنه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله.

وأما الدم الذى رأيت كأنه خضب[1] به جسدك: فإنه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضىء فى الظلمة.

وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء:

فإنه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك.

وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض:

فإنه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل.

وأما ما رأيت على رأسك شبيها بالنار:

فإنه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلل بالدر والياقوت.

وأما الطير الذى رأيته ضرب رأسك بمنقاره:

فلست مفسرا ذلك اليوم. وليس بضارك، فلا توجلن منه[2]. ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمن تحبه: فهذا تفسير رؤياك أيها الملك.

وأما هذه الرسل والبرد[3] فإنهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعا فيقومون بين يديك.

---

(١) خضب: تلون.

(٢) توجلن منه: تخاف منه.

(٣) البرد: الثوب به خطوط.

فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع إلى منزله.

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على التخت[1]، وأذن للأشراف، وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم. فلما رأى الملك ذلك اشتد عجبه وفرحه من علم كباريون. وقال:

ما وُفقت حين قصصت رؤياى على البراهمة فأمرونى بما أمرونى به. ولولا أن الله تعالى تداركنى برحمته لكنت قد هلكت وأهلكت؛ وكذلك لا ينبغى لكل أحد أن يسمع إلا من الأخلاء ذوى العقول. وإن إيراخت أشارت بالخير فقبلته. ورأيت به النجاح. فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت.

ثم قال لإيلاذ: خذ الإكليل والثياب واحملها واتبعنى بها إلى مجلس النساء. ثم إن الملك دعا إيراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه. فقال لإيلاذ: ضع الكسوة والإكليل بين يدى إيراخت لتأخذ أيها شاءت. فوضعت الهدايا بين يدى إيراخت. فأخذت منها الإكليل، وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها.

وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند إيراخت وليلة عند حورقناه. وكان من سنة الملك أن تهيئ له المرأة التى يكون عندها فى ليلتها أرزا بحلاوة فتطعمه إياه. فأتى الملك إيراخت فى نوبتها. وقد صنعت له أرزا. فدخلت عليه بالصحفة[2] والإكليل على رأسها. فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت. فلبست تلك الكسوة. ومرت بين يدى الملك وتلك الثياب تضىء عليها مع نور وجهها كما تضىء الشمس.

فلما رآها الملك أعجبته. ثم التفت إلى إيراخت فقال:

إنك جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة التى ليس فى خزائننا مثلها. فلما سمعت إيراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هى وذم رأيها أخذها

(١) التخت: السرير وهو مكان مرتفع للجلوس والنوم.

(٢) الصحفة: ما يوضع فيها الطعام.

من ذلك الغيرة والغيظ. فضربت بالصحفة رأس الملك. فسال الأرز على وجهه. فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ. فقال له:

ألا ترى، وأنا ملك العالم، كيف حقرتنى هذه الجاهلة، وفعلت بى ما ترى؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها.

فخرج إيلاذ من عند الملك وقال: لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب. فالمرأة عاقلة سديدة الرأى من الملكات التى ليس لها عديل فى النساء، وليس الملك بصابر عنها. وقد خلصَته من الموت، وعملت أعمالا صالحة. ورجاؤنا فيها عظيم. ولست آمنه أن يقول: لِمَ لَمْ تؤخر قتلها حتى تراجعنى؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأى الملك فيها ثانية: فإن رأيته نادما حزينا على ما صنع جئت بها حية. وكنت قد عملت عملا عظيما. وأنجيت إيراخت من القتل. وحفظت قلب الملك. واتخذت عند عامة الناس بذلك يدا. وإن رأيته فرحا مستريحا مصوبا رأيه فى الذى فعله وأمر به فقتلها لا يفوت.

ثم انطلق بها إلى منزله، ووكل بها خادما من أمنائه؛ وأمره بخدمتها وحراستها، حتى ينظر ما يكون من أمرها وأمر الملك. ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين. فقال أيها الملك: إنى قد أمضيت أمرك فى إيراخت.

فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب، وذكر جمال إيراخت وحسنها. واشتد أسفه عليها. وجعل يعزى نفسه عنها. ويتجلد[1] وهو مع ذلك يستحى أن يسأل إيلاذ: أحقا أمضى أمره فيها أم لا؟ ورجا- لما عرف من عقل إيلاذ- ألا يكون قد فعل ذلك. ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الذى به فقال له:

لا تهتم ولا تحزن أيها الملك: فإنه ليس فى الهم والحزن منفعة. ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه. فاصبر أيها الملك على ما لست بقادر عليه أبدا. وإن أحب الملك حدثته بحديث.

(١) يتجلد: يتصبر ويتحمل.

قال: حدثنى.

قال إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكرا وأنثى ملئا عشهما من الحنطة والشعير: فقال الذكر للأنثى: إنا إذا وجدنا فى الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل مما ها هنا شيئا. فإذا جاء الشتاء ولم يكن فى الصحارى شىء رجعنا إلى ما فى عشنا فأكلناه.

فرضيت الأنثى بذلك.وقالت له:

نِعم ما رأيت. وكان ذلك الحب نديا حين وضعاه فى عشهما. فانطلق الذكر فغاب. فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر. فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصا.

فقال لها: أليس كنا أجمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئا؟ فلم أكلتِه؟

فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئا. وجعلت تعتذر إليه. فلم يصدقها. وجعل ينقرها حتى ماتت.

فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان.

فلما رأى الذكر ذلك ندم. ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال:

ما ينفعنى الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك، ولم أقدر عليك، وإذا فكرت فى أمرك وعلمت أنى قد ظلمتك. ولا أقدر على تدارك[1] ما فات.

ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعاما ولا شرابا حتى مات إلى جانبها.

والعاقل لا يعجل فى العذاب والعقوبة، ولا سيما من يخاف عليه الندامة، كما ندم الحمام الذكر. وقد سمعت أيضا أن رجلا دخل الجبل وعلى رأسه كارة[2] من العدس فوضع الكارة عن ظهره ليستريح. فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفه من العدس وصعد إلى الشجرة. فسقطت من يده حبة فنزل فى طلبها فلم يجدها. وانتثر ما كان فى يده من العدس أجمع.

---

(١) تدارك: تجنب.

(٢) كارة: كمية.

وأنت أيضا أيها الملك عندك ست عشرة ألف امرأة تدع أن تلهو بهن وتطلب التى لا تجد!

فلما سمع الملك ذلك خشى أن تكون إيراخت قد هلكت. فقال لإيلاذ:

لم لا تأنيت وتثبت؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلقت بها، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك؟

قال إيلاذ: إن الذى قوله واحد لا يختلف هو الله الذى لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله.

قال الملك: لقد أفسدت أمرى وشددت حزنى بقتل إيراخت.

قال إيلاذ: اثنان ينبغى لهما أن يحزنا: الذى يعمل الإثم فى كل يوم، والذى لم يعمل خيرا قط: لأن فرحهما فى الدنيا ونعيمهما قليل. وندامتهما إذ يعاينان نتيجة الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها.

قال الملك: لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شىء أبدا.

قال إيلاذ: اثنان لا ينبغى لهما أن يحزنا: المجتهد فى البر كل يوم، والذى لم يأثم قط.

قال الملك: ما أنا بناظر إلى إيراخت أكثر مما نظرت.

قال إيلاذ: اثنان لا يَنظران: الأعمى والذى لا عقل له. وكما أن الأعمى لا ينظر السماء ونجومها والأرض ولا ينظر القرب والبعد، كذلك الذى لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسىء.

قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحى.

قال إيلاذ: اثنان هما الفرحان: البصير والعالم. فكما أن البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد، فكذلك العالم يبصر البر والإثم، ويعرف عمل الآخرة، ويتبين له نجاته، ويهتدى إلى صراط مستقيم.

قال الملك: ينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر والاتقاء.

قال إيلاذ: اثنان ينبغى أن يتباعد منهما: الذى يقول لا بر ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شىء عليَّ مما أنا فيه، والذى لا يقدر يصرف بصره عما ليس له، ولا أذنه عن استماع السوء، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الإثم والحرص.

قال الملك: صارت يدى من إيراخت صفرا.

قال إيلاذ: ثلاثة أشياء أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل.

قال الملك: إنك يا إيلاذ لتلقى بالجواب.

قال إيلاذ: ثلاثة يلقون بالجواب: الملك الذي يعطي ويقسم من خزانته، والمرأة المهداة إلي من تهوى من ذوي الحسب، والرجل العالم الموفق للخير.

ثم إن إيلاذ لما رأى الملك اشتد به الأمر، وقال:

أيها الملك، إن إيراخت بالحياة.

فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه. وقال يا إيلاذ:

إنما منعنى من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتى بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت. فإنها وإن كانت أتت عظيما وأغلظت فى القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة؛ ولكنها فعلت ذلك للغَيرة. وقد كان ينبغى لى أن أعرض عن ذلك وأحتمله. ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرنى وتتركنى فى شك من أمرها. وقد اتخذت عندى أفضل الأيادى. وأنا لك شاكر. فانطلق فأتنى بها.

فخرج من عند الملك فأتى إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك. وانطلق بها إلى الملك. فلما دخلت سجدت له. ثم قامت بين يديه. وقالت:

أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذى أحسن إلى: قد أذنبت الذنب العظيم الذى لم أكن للبقاء أهلا[1] بعده، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته؛ ثم أحمد إيلاذ الذى أخر

(١) أهلا: مستحقًا.

أمرى، وأنجانى من الهلكة، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده.

وقال الملك لإيلاذ: ما أعظم يدك عندى وعند إيراخت وعند العامة: إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها: فأنت الذى وهبها لى اليوم: فإنى لم أزل واثقا بنصيحتك وتدبيرك. وقد ازددت اليوم عندى كرامة وتعظيما. وأنت محكم فى ملكى تفعل فيه بما ترى، وتحكم عليه بما تريد. فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك.

قال إيلاذ: أدام الله لك أيها الملك الملك والسرور. فلست بمحمود على ذلك. فإنما أنا عبدك. لكن حاجتى ألا يعجل الملك فى الأمر الجسيم الذى يندم على فعله، وتكون عاقبته الغم والحزن؛ ولاسيما فى مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التى لا يوجد فى الأرض مثلها. فقال الملك بحق قلت يا إيلاذ، وقد قبلت قولك، ولست عاملا بعدها عملا صغيرا ولا كبيرا، فضلا عن مثل هذا الأمر العظيم الذى ما سلمت منه[1]، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلى ذوى العقول ومشاورة أهل المودة والرأى.

ثم أحسن الملك جائزة إيلاذ، ومكنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبابه، فأطلق فيهم السيف، وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته؛ وحمدوا الله وأثنوا على كباريون بسعة علمه وفضل حكمته: لأنه بعلمه خلص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة.

(انقضى باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت)

(١) سلمت منه: نجوت منه بدون أذي.

الباب الخامس عشر

اللبؤة[١] والإسوار[٢] والشغبر[٣]

(١) اللبؤة: أنثى الأسد.

(٢) الإسوار: قائد الفرس، وجمعه أساورة.

(٣) الشغبر: ابن آوى.

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل. فاضرب لى مثلا فى شأن من يدع ضر غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضر، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدواة لغيره.

قال الفيلسوف: إنه لا يقدم على طلب ما يضر بالناس وما يسوءهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر فى العواقب من أمور الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم فى ذلك من حلول النقمة؛ وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول. وإن سلم بعضهم من ضرر بعض لمنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ما صنع: فإن من لم يفكر فى العواقب لم يأمن المصائب، وحقيق ألا يسلم من المعاطب. وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره، فارتدع عن أن يغشى أحدا بمثل ذلك من الظلم والعدوان، وحصل له نفع ما كف عنه من ضرره لغيره فى العاقبة؛ فنظير ذلك حديث اللبؤة والإسوار والشغبر.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كانت فى غيضة[1]، ولها شبلان[2]؛ وأنها خرجت فى طلب الصيد وخلفتهما فى كهفهما؛ فمر بهما إسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما، وسلخ جلديهما فاحتقبهما[3]، وانصرف بهما إلى منزله، ثم إنها رجعت. فلما رأت ما حل بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرا لبطن وصاحت وضجت. وكان إلى جنبها شغبر. فلما سمع ذلك من صياحها قال لها:

ما هذا الذى تصنعين؟ وما نزل بك؟ فأخبرينى به.

---

(١) غيضة: أجمة وهي أرض مليئة بالشجر الملتف.

(٢) شبل: ولد الأسد.

(٣) احتقبهما: حملهما على دابته.

قالت اللبؤة شبلاى مر بهما إسوار فقتلهما، وسلخ جلديهما فاحتقبهما؛ ونبذهما بالعراء[1].

قال لها الشغبر: لا تضجى وأنصفى من نفسك، واعلمى أن هذا الإسوار لم يأت إليك شيئا إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله، وتأتين إلى غير واحد مثل ذلك، ممن كان يجد بحميمه[2] ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك. فاصبرى على فعل غيرك كما صبر غيرك على فعلك: فإنه قد قيل: كما تَدين تُدان. ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب. وهما على قدره فى الكثرة والقلة. كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره.

قالت اللبؤة: بين لى ما تقول، وأفصح لى عن إشارته.

قال الشغبر: كم أتى لك من العمر؟

قالت اللبؤة: مائة سنة.

قال الشغبر: ما كان قوتك[3]؟

قالت اللبؤة: لحم الوحش.

قال الشغبر: من كان يطعمك إياه؟

قالت اللبؤة: كنت أصيد الوحش وآكله.

قال الشغبر: أرأيت الوحوش التى كنت تأكلين، أما كان لها آباء وأمهات؟

قالت: بلى.

قال الشغبر: فما بالى لا أرى ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج[4] ما أرى وأسمع لك؟ أما إنه لم ينزل بك ما نزل إلا لسوء نظرك فى

(١) نبذهما بالعراء: تركهما في الخلاء.

(٢) حميمه: حبيبه.

(٣) قوتك: طعامك

(٤) .الضجيج: الصياح بأصوات عالية وصاخبة.

العواقب وقلة تفكرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها.

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الشغبر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها، وأن عملها كان جورا وظلما، فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار والنسك والعبادة. فلما رأى ذلك ورشان[1] (كان صاحب تلك الغيضة وكان عيشه من الثمار) قال لها: قد كنت أظن أن الشجر عامنا هذا لم تحمل: لقلة الماء؛ فلما أبصرتك تأكلينها، وأنت آكلة اللحم، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك، وتحولت إلى رزق غيرك فانتقصته، ودخلت عليه فيه- علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم؛ وإنما أتت قلة الثمر من جهتك. فويل للشجر وويل للثمار وويل لمن عيشه منها! ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم فى أرزاقهم، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتادا لأكلها! فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة. وإنما ضربتَ لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضر يصيبه عن ضر الناس؛ كاللبؤة التى انصرفت لما لقيت فى شبليها عن أكل اللحم ثم عن أكل الثمار بقول الورشان، وأقبلت على النسك والعبادة. والناس أحق بحسن النظر فى ذلك: فإنه قد قيل ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك: فإن فى ذلك العدل: وفى العدل رضا الله تعالى ورضا الناس.

(انقضى باب اللبؤة والإسوار والشغبر)

(١) الورشان: طائر يشبه الحمام.

الباب السادس عشر

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل. فاضرب لى مثل الذى يدع ينعه[١] الذى يليق به ويشاركه[٢]، ويطلب غيره فلا يدركه: فيبقى حيران مترددا.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد. فنزل به ضيف ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر: ليطرفه[٣] به. فأكلا منه جميعا. ثم قال الضيف:

ما أحلى هذا التمر وأطيبه! فليس هو فى بلادى التى أسكنها، وليته كان فيها! ثم قال: أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه فى أرضنا: فإنى لست عارفا بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها.

فقال له الناسك: ليس لك فى ذلك راحة: فإن ذلك يثقل عليك. ولعل ذلك لا يوافق أرضكم، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته[٤] وقلة موافقته للجسد؟

ثم قال له الناسك: إنه لا يعد حكيما من طلب ما لا يجد. وإنك سعيد الجد إذا قنعت بالذى تجد، وزهدت فيما لا تجد.

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية[٥]. فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه؛ وعالج فى ذلك نفسه أياما. فقال الناسك لضيفه:

ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك، وتكلفت من كلام العبرانية، فى مثل ما وقع فيه الغراب!

---

(١) ينعه: صنعه.

(٢) يشاركه: يشاكله ويجانسه.

(٣) يطرفه: يتحفه.

(٤) وخامته: أصابته تخمة، أي غير موافق للأكل.

(٥) العبرانية: لغة اليهود.

قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غرابا رأى حجلة[١] تدرج[٢] وتمشى، فأعجبته مشيتها، وطمع أن يتعلمها. فراض[٣] على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها، وأيس منها. وأراد أن يعود إلى مشيته التى كان عليها: فإذا هو قد اختلط وتخلع فى مشيته، وصار أقبح الطير مشيا.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذى طُبعت عليه، وأقبلت على لسان العبرانية، وهو لا يشاكلك؛ وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لسانا: فإنه قد قيل:

إنه يعد جاهلا من تكلف من الأمور مالا يشاكله، وليس من عمله ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

(انقضى باب الناسك والضيف)

(١) حجلة: طائر في حجم الحمام، أحمر المنقار والرجلين طيب اللحم.

(٢) تدرج: تأخذ في الحركة.

(٣) فراض: فوافق.

الباب السابع عشر

السائـح والصائـــغ

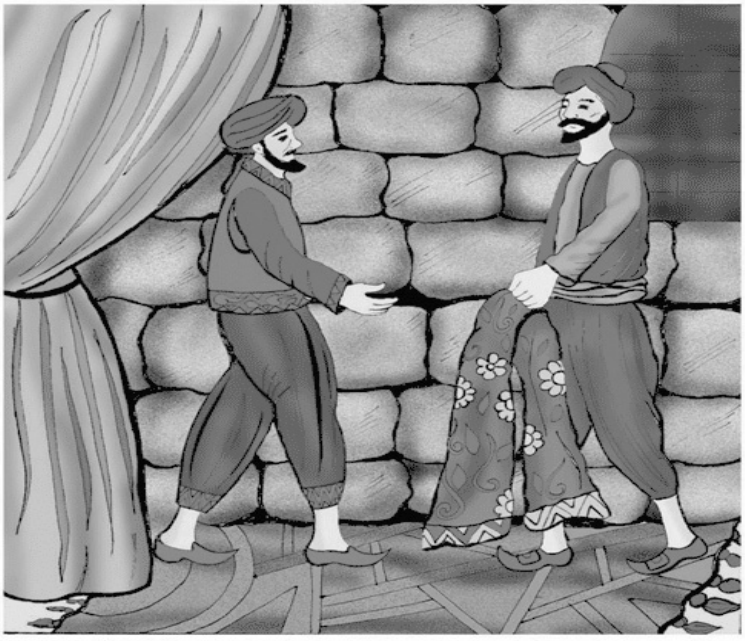

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل. فاضرب لى مثلا فى شأن الذى يضع المعروف فى غير موضعه، ويرجو الشكر عليه.

قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة. وليس مما خلقه الله فى الدنيا مما يمشى على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شىء هو أفضل من الإنسان؛ ولكن من الناس البر والفاجر. وقد يكون فى بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به. وحينئذ يجب على ذوى العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه؛ ولا يضعوه عند من لا يحتمله. ولا يقوم بشكره؛ ولا يصطنعوا أحدا إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره ولا ينبغى أن يختصوا بذلك قريبا لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم[1] للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه: لأنه يكون حينئذ عارفا بحق ما اصطنع إليه مؤديا لشكر ما أُنعم عليه، محمودا بالنصح، معروفا بالخير، صدوقا عارفا، مؤثرا لحميد الفعال والقول. وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعا، ولتقريبه واصطناعه أهلا: فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه والجس لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته.

فكذلك العاقل: لا ينبغى له أن يصطفي[2] أحدا، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة: فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطرا فى ذلك ومشرفا منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذى لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله فى طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة.

(١) رفدهم: عطاؤهم وصلتهم.

(٢) يصطفي: ينتقي ويختار.

وربما حَذِرَ العاقلُ الناس ولم يأمن على نفسه أحدا منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله فى كمه ويخرجه من الآخر، كالذى يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئا انتفع به، ومطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغى لذى العقل أن يحتقر صغيرا ولا كبيرا من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوَهم، ويكون ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم. وقد مضى فى ذلك مثل ضربه بعض الحكماء.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة احتفروا ركية[١] فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببر[٢]، ومر بهم رجل سائح، فأشرف على الركية؛ فبصر بالرجل والحية والببر والقرد. ففكر فى نفسه، وقال:

لست أعمل لآخرتى عملا أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ حبلا، وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج. ثم دلاه ثانية، فالتفت به الحية فخرجت. ثم دلاه الثالثة، فتعلق به الببر فأخرجه. فشكرن له صنيعه. وقلن له:

لا تخرج هذا الرجل من الركية: فإنه ليس شىء أقل شكرا من الإنسان. ثم هذا الرجل خاصة.

ثم قال له القرد: إن منزلى فى جبل قريب من مدينة يقال لها: نوادرخت.

فقال له الببر: أنا أيضا فى أجمة إلى جانب تلك المدينة.

قالت الحية: أنا أيضا فى سور تلك المدينة. فإن أنت مررت بنا يوما من الدهر، واحتجت إلينا فصوت[٣] علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت[٤] إلينا من المعروف.

(١) ركية: بئر.

(٢) الببر: حيوان ثديي، من اللواحم من الفصيلة السنورية وهو حيوان مفترس كبير الحجم ويسمى في مصر: النمر، جمع (ببور).

(٣) فصوت: فنادى بصوت مرتفع.

(٤) أسديت: أعطيت.

فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا له من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرج الصائغ، فسجد له، وقال له:

لقد أوليتنى معروفا. فإن أتيت يوما من الدهر بمدينة نوادرخت فاسأل عن نُزلى[1]: فأنا رجل صائغ لعلى أكافئك بما صنعت إلى من المعروف.

فانطلق الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه. فعرض بعد ذلك أن السائح اتفقت له حاجة إلى تلك المدينة، فانطلق، فاستقبله القرد، فسجد له وقبل رجليه. واعتذر إليه، وقال:

إن القرود لا يملكون شيئا، ولكن اقعد حتى آتيك. وانطلق القرد، وأتاه بفاكهة طيبة، فوضعها بين يديه، فأكل منها حاجته. ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة فاستقبله الببر، فخر له ساجدا وقال له:

إنك قد أوليتنى معروفا. فاطمئن ساعة حتى آتيك. فانطلق الببر فدخل فى بعض الحيطان[2] إلى بنت الملك فقتلها، وأخذ حليها، فأتاه بها، من غير أن يعلم السائح من أين هو. فقال فى نفسه: هذه البهائم قد أولتنى هذا الجزاء، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنه إن كان معسرا لا يملك شيئا فسيبيع هذا الحلى فيستوفى ثمنه. فيعطينى بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه. فانطلق السائح، فأتى إلى الصائغ. فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته. فلما بصر بالحلى معه، عرفه وكان هو الذى صاغه لابنة الملك. فقال للسائح: اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما فى البيت. ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتى: أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتى عنده.

فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: إن الذى قتل ابنتك وأخذ حليها عندى.

فأرسل الملك وأتى بالسائح فلما نظر الحلى معه لم يمهله، وأمر به أن يعذب ويطاف

(١) نزلي: مكاني.

(٢) الحيطان: البساتين المسورة.

به فى المدينة، ويصلب. فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكى ويقول بأعلى صوته: لو أنى أطعت القرد والحية والببر فيما أمرننى به وأخبرننى من قلة شكر الإنسان لم يصر أمرى إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول.

فسمعت مقالته تلك الحية فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتد عليها أمره، فجعلت تحتال فى خلاصه. فانطلقت حتى لدغت ابن الملك، فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئا. ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه، فرقت له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له. وقالت له: إنك لا تبرأ حتى يرقيك الرجل الذى قد عاقبتموه ظلما وانطلقت الحية إلى السائح فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذى كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان: ولم تطعنى. وأتته بورق ينفع من سمها، وقالت له: إذا جاءوا بك لترقى ابن الملك فاسقه من ماء هذ الورق: فإنه يبرأ، وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه: فإنك تنجو إن شاء الله تعالى.

وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلا يقول: إنك لن تبرأ حتى يرقيك هذا السائح الذى حبس ظلما. فدعا الملك بالسائح، وأمره أن يرقى ولده. فقال: لا أحسن الرقى، ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ بإذن الله تعالى. فسقاه فبرئ الغلام. ففرح الملك بذلك: وسأله عن قصته، فأخبره. فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائغ أن يصلب. فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففى صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه، عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب فى وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قَربوا أو بعدوا لما فى ذلك من صواب الرأى وجلب الخير وصرف المكروه.

(انقضى باب السائح والصائغ)

الباب الثامن عشر

ابـــن الملك وأصحـــابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل. فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته فى الأمور كما يزعمون. فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة[١] والخير، والرجل الحكيم العاقل قد يصيب البلاء والضر؟

قال بيدبا: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العمل، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت؛ غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك. ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا فى طريق واحدة، أحدهم ابن ملك والثانى ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن أكار[٢]. وكانوا جميعا محتاجين، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد فى موضع غربة لا يملكون إلا ما عليهم من الثياب. فبينما هم يمشون إذ فكروا فى أمرهم وكان كل إنسان منهم راجعا إلى طباعه وما كان يأتيه منه الخير.

قال ابن الملك: إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر، والذى قدر على الإنسان يأتيه على كل حال؛ والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور.

وقال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شىء.

وقال ابن الشريف: الجمال أفضل مما ذكرتم.

ثم قال ابن الأكار: ليس فى الدنيا أفضل من الاجتهاد فى العمل.

فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون، جلسوا فى ناحية منها يتشاورون: فقالوا

---

(١) الرفعة: علو القدر.

(٢) أكار: الحراث (الفلاح).

لابن الأكار: انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاما ليومنا هذا. فانطلق ابن الأكار، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرفوه أنه ليس فى تلك المدينة شىء أعز من الحطب؛ وكان الحطب منها على فرسخ[١].

فانطلق ابن الأكار فاحتطب طنا[٢] من الحطب، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاما وكتب على باب المدينة:

عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم.

ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا. فلما كان من الغد قالوا:

ينبغى للذى قال إنه ليس شىء أعز من الجمال أن تكون نوبته. فانطلق ابن الشريف ليأتى المدينة، ففكر فى نفسه وقال:

أنا لست أحسن عملا فما يدخلنى المدينة؟ ثم استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام، وهم بمفارقتهم.

فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام.

فمر به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النجار[٣] فرقَّ له ومنحه خمسمائة درهم. فكتب على باب المدينة:

جمال يوم واحد يساوى خمسمائة درهم.

وأتى بالدراهم إلى أصحابه.

فلما أصبحوا فى اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر:

انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئا.

---

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال (جمعه) فراسخ.

(٢) .طنّاً: حزمة، أو كومة.

(٣) النجَار: الأصل والحسب.

فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل، فخرج إليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا[1] مما فيها من المتاع. فجلسوا يتشاورون فى ناحية من المركن، وقال بعضهم لبعض:

ارجعوا يومنا هذا لا نشترى منهم شيئا حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوه علينا، مع أننا محتاجون إليه، وسيرخص.

فخالف الطريق وجاء إلى أصحاب المركب، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة[2] وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى.

فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم، وأحال عليهم أصحاب المركب بالباقى، وحمل ربحه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة:

عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم.

فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك:

انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك.

فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب المدينة فجلس على متكإ[3] فى باب المدينة، واتفق أن ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولدا ولا أحدا ذا قرابة. فمروا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون. فأنكروا حاله وشتمه البواب، وقال له:

من أنت يا هذا؟ وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك؟

وطرده البواب عن الباب فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له:

---

(١) يبتاعوا: يشتروا.

(٢) نسيئة: إلى أجل محدد.

(٣) متكإٍ: بناء مسطح أعلاه للمقعد (مسند).

ألم أنهك عن الجلوس فى هذا الموضع؟

وأخذه فحبسه فلما كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم، وكل منهم يتطاول بنظر صاحبه، ويختلفون بينهم.

فقال لهم البواب: إنى رأيت أمس غلاما جالسا على الباب، ولم أره يحزن لحزننا، فكلمته فلم يجبنى، فطردته عن الباب. فلما عدت رأيته جالسا، فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينا. فبعثت أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاءوا به، وسألوه عن حاله، وما أقدمه إلى مدينتهم. فقال:

أنا ابن ملك فويران، وإنه لما مات والدى غلبنى أخى على الملك، فهربت من يده حذرا على نفسى حتى انتهيت إلى هذه الغاية.

فلما ذكر الغلام ما ذكر من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم، وأثنوا على أبيه خيرا. ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به.

وكان لأهل تلك المدينة سنة إذا ملكوا عليهم ملكا حملوه على فيل أبيض، وطافوا به حوالي المدينة. فلما فعلوا به ذلك مر بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب:

إن الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل فى الدنيا من خير أو شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل. وقد ازددت فى ذلك اعتبارا بما ساق الله إلي من الكرامة والخير.

ثم انطلق إلى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم، فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع. وأمر لصاحب الجمال بمال كثير ثم نفاه كى لا يُفتتن به.

ثم جمع علماء أرضه وذوى الرأى منهم وقال لهم:

أما أصحابى فقد تيقنوا أن الذى رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره؛ وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه[١]؛ فإن الذى منحنى الله وهيأه لى إنما كان بقدر، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد. وما كنت أرجو إذ طردنى أخى أن يصيبنى ما يعيشنى من القوت فضلا عن أن أصيب هذه المنزلة؛ وما كنت أؤمل[٢] أن أكون بها: لأنى قد رأيت فى هذه الأرض من هو أفضل منى حسنا وجمالا، وأشد اجتهادا وأسدُّ رأيا، فساقنى القضاء إلى أن اعتززت بقدر من الله. وكان فى ذلك الجمع شيخ فنهض[٣] حتى استوى قائما، وقال:

إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة، وإن الذى بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنك؛ وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك. وقد عرفنا ما ذكرت، وصدقناك فيما وصفت. والذى ساق الله إليك من الملك والكرامة كنت أهلا له، لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأى. وإن أسعد الناس فى الدنيا والآخرة من رزقه الله رأيا وعقلا. وقد أحسن الله إلينا إذ وفقك لنا عند موت ملكنا وكرَّمنا بك.

ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وقال:

إنى كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحا، رجلا من أشراف الناس. فلما بدا لى رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطانى من أجرتى دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما، وأستبقى الآخر؛ فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد، فساومته فيهما فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين؛ فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد فأبى.

فقلت فى نفسى: أشترى أحدهما وأترك الآخر. ثم فكرت وقلت لعلهما يكونان

---

(١) تستيقنوه: تتأكدوا منه.

(٢) أؤمل: أرجو.

(٣) نهض: هب واقفًا.

زوجين ذكرا وأنثى فأفرق بينهما، فأدركنى لهما رحمة فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين وأشفقت إن أرسلتهما فى أرض عامرة أن يصادا، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال، ولم آمن عليهما الآفات. فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران، فأرسلتهما؛ فطارا ووقعا على شجرة مثمرة.

فلما صارا فى أعلاها شكرا لى، وسمعت أحدهما يقول للآخر:

لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذى كنا فيه، واستنقذنا ونجانا من الهلكة. وإنا لخليقان أن نكافئه بفعله. وإن فى أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير. أفلا ندله عليها فيأخذها؟فقلت لهما: كيف تدلاننى على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟

فقالا: إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشىء وغشى البصر. وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز.

فاحتفرت واستخرجت البرنية وهى مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما: الحمد لله الذى علمكما ما لم تعلما، وأنتما تطيران فى السماء، وأخبرتما بما تحت الأرض.

فقالا لى: أيها العاقل، أما تعلم أن القدر غالب على كل شىء، لا يستطيع أحد أن يتجاوزه.

وأنا أخبر الملك بذلك الذى رأيته: فإن أمر الملك أتيته بالمال فأودعته فى خزائنه. فقال الملك ذلك لك، وموفر عليك.

(انتهى باب ابن الملك وأصحابه)

الباب التاسع عشر

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين[1]

(١) مالك الحزين: اسم طائر من طير الماء يعرف في مصر بالبلشون.

وهو باب من يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه قال الملك للفيلسوف:

قد سمعت هذا المثل فاضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

قال الملك: وما مَثَلهُنَّ؟

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ذاهبة فى السماء، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة: لطول النخلة وسحقها؛ فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ما ينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها فتلقى إليه فراخها.

فبينما هى ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين:

يا حمامة، مالى أراك كاسفة اللون[1] سيئة الحال؟

فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلبا دُهيت به[2] كلما كان لى فرخان جاءنى يهددنى ويصيح فى أصل النخلة، فأفرق منه[3] فأطرح إليه فرخيَّ.

قال لها مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولى له:

لا ألقى إليك فرخى، فارق إلى وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخى، طرت عنك ونجوت بنفسى.

---

(١) سحقها: بُعدها.

(٢) كاسفة اللون: متغيرة اللون.

(٣) دهيت به: أصبت به وابتليت.

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر.

فأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف، فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل. فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين.

فقال لها الثعلب: أخبرينى من علمك هذا؟

قالت: علمنى مالك الحزين.

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفا.

فقال له الثعلب: يا مالك الحزين: إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟

قال: عن شمالى.

قال: فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك؟

قال: أجعله عن يمينى أو خلفى.

قال: فإذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله؟

قال: أجعله تحت جناحى.

قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ لك.

قال: بلى:

قال: فأرنى كيف تصنع؟ فلعمرى يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين فى ساعة واحدة مثل ما ندرى فى سنة، وتبلغن ما لا نبلغ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح. فهنيئا لكن فأرنى كيف تصنع.

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة[1] دقت عنقه[2].

(١) فهمزة همزة: فنقره نقرة في الأرض.

(٢) دقت عنقه: كسرت عنقه.

ثم قال: يا عدو نفسه، ترى الرأى للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، حتى يستمكن منك عدوك، ثم أجهز عليه وأكله.

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكت الملك.

فقال له الفيلسوف: أيها الملك، عشت ألف سنة، وملكت الأقاليم السبعة وأعطيت من كل شيء سببا، مع وفور سرورك وقرة عين رعيتك بك، ومساعدة القضاء والقدر لك، فإنه قد كمل فيك الحلم والعلم، وزكا منك العقل والقول والنية؛ فلا يوجد فى رأيك نقص، ولا فى قولك سقط ولا عيب. وقد جمعت النجدة واللين، فلا توجد جبانا عند اللقاء، ولا ضيق الصدر عند ما ينوبك[1] من الأشياء.

وقد جمعت لك فى هذا الكتاب شمل بيان الأمور، وشرحت لك جواب ما سألتنى عنه منها، فأبلغتك فى ذلك غاية نصحى، واجتهدت فيه برأيى ونظرى ومبلغ فطنتى، التماسا لقضاء حقك وحسن النية منك. بإعمال الفكرة والعقل. فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة، مع أنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح، ولا المعلم للخير بأسعد من متعلمه منه. فافهم ذلك أيها الملك. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تم الكتاب بعون الله

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وعلى رسل الله وأنبيائه والحمد لله رب العالمين.

(١) ينوبك: يصيبك.

فهرس المحتويات

الكتاب والمؤلف 5
قارؤنا الكريم 6
الباب الأول – مقدمة الكتاب (قدمها بهنود بن سحوان
ويعرف بـ على بن الشاه الفارسي) 7
باب مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي بهنود بن سحوان 9
الباب الثاني – بعثة برزويه إلي بلاد الهند 31
تقديم 33
الباب الثالث– عرض الكتاب 43
الباب الرابع– برزويه 55

الباب الخامس- الأسد والثور وهو أول الكتاب 67
الباب السادس- الفحص عن أمر دمنة 109
الباب السابع - باب الحمامة المطوقة 125
الباب الثامن- البوم والغربان 143
الباب التاسع- القرد والغيلم 167
الباب العاشر- الناسك وابن عرس 175
الباب الحادي عشر- باب الجرذ والسنور 181
الباب الثاني عشر- ابن الملك والطائر فنزة 189
الباب الثالث عشر- الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى 197
الباب الرابع عشر- إيلاذ وبلاذ وإيراخت 207
الباب الخامس عشر- اللبؤة والإسوار والشغبر 223
الباب السادس عشر- باب الناسك والضيف 229
الباب السابع عشر-السائح والصائغ 233
الباب الثامن عشر- ابن الملك وأصحابه 239
الباب التاسع عشر- باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين 247